لا تقلق وكن فخوراً بالإسلام

دكتور

محمد مورو



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : لا تقلق وكن فخوراً بالإسلام

المؤلف : د. محمد مورو

رقم الإيداع : رقم الايداع ٢٠١٧/١٧٨٥٨

الترقيم الدولى / ١-٢١-٠٢٤-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الفهرس

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران]

(١)

لا تقلق وكن فخوراً بالإسلام



لا تقلق فأنت مسلم وهذا يكفيك . لا تحزن فأنت مؤمن وهذا يكفيك ، لا تهن وأنت الأعلى لأنك مع رب العزة وهو أقوى الأقوياء .

لا تقلق فإن الله موجود ، وهذه حقيقة علمية ومعنوية معاً ولا تحزن فمحمد ﷺ رسوله والقرآن من عنده بكل الإثباتات اليقينية العلمية والمعنوية.

الله تعالى موجود ، والروح موجودة ، وإلا فكيف تفسر لي هذا الإبداع الفني من موسيقى وشعر ورسم وكذا القوانين والأخلاق ، لو كان الإنسان مادة كما يزعم الملحدون والعلمانيون عموماً ، فكيف تنتج المادة موسيقى وشعر ورسم وكذا القوانين والأخلاق وفي الحقيقة فإن هذه النقطة قد ناقشها الأستاذ علي عزت بيجوفيتش في كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب » المترجم إلى اللغة العربية والمكتوب أصلاً بالإنجليزية في الأجزاء الأولى وقد أتى الرجل بآلاف الأدلة والمناقشات التفصيلية التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك وجود شيء غير مادي في الإنسان ومن ثم حقيقة وجود الروح ووجود الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان وخلق كل شيء ليس هذا فحسب بل إن مجرد التفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وغيرها من الأمور اللا نهائية من آيات الخلق في الكون والإنسان والحيوان والنبات والجماد يقود إلى وجود الله وكثير من الذين ناقشتهم من الكفار يقولون أنه لا مشكلة في الاعتراف بوجود الله ولكن المشكلة من وجهة نظرهم في كيف خلق الله هذا وكيف يديره ، وكذا في الأديان هل هي صادقة أم كاذبة ، وهذه المعضلة المتصورة هي معضلة الفلسفة في كل تاريخها ، ذلك أن الإنسان يصل إلى معرفة وجود الله بكل سهولة ويسر فلا يكتفي بهذا بل يريد أن يعرف كيف خلق الله الكون ، وكيف يديره ، هل العالم قديم أم محدث ، ما هو القضاء والقدر ، ما مسئولية الإنسان عن أفعاله ، هل هو مسير أم مخير ... الخ، وفي الحقيقة فإني أزعم أن أحداً حتى الآن لم ولن يصل إلى إجابة عن أسئلة كثيرة تتعلق بالكيف ، لأن العقل البشري غير قادر أساساً على فهم هذه الأمور ، وهذا

من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، قد يطلع أحد من خلقه في الدنيا والآخرة على شيء من ذلك ، أو لا يطلع ، فهو مطلق الحرية ، المهم أن ما يحتاج إليه الإنسان من معرفة الله ، ومن تمييز صدق الأنبياء ، ومن معرفة الحق من الباطل ، وكذا ما يلزم من فهم القوانين المادية التي تساعده في حياته وتجعله يعمر الأرض قد زوده الله بها ، وهذا يكفي ، ولذا فإن دراسة الفلسفة عملية هامة وضرورية ومفيدة بشرط أن نعرف حدودنا ، فنفكر في وجود الله وأن هناك روح ، وشيء خارج المادة ، وأن المادة وحدها غير قادرة على تفسير الحياة ، أما مسألة كيف فعل الله هذا ومتى وبأية طريقة فهذا خارج إطار قدرات الإنسان العقلية والنفسية أصلا ، ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن إنساناً ما لو صمم سيارة مثلاً وحاولت السيارة أن تفكر كيف يتحرك الإنسان ، فبالطبع سوف تتصور السيارة أن الإنسان يتحرك بالبنزين وله أربعة عجلات ... الخ ، وهذا معناه أن ما ينطبق من قوانين على الإنسان لا ينطبق على الله تعالى ، فإذا كان قانون العلية والسببية والزمان والمكان وعدم التضاد والتناقض وغيرها من البديهيات العقلية تنطبق على الإنسان فإنها لا تعمل في إطار قدرة الله تعالى ، لأن هذا مجال آخر.

أما بالنسبة إلى الأديان فأنت كمسلم تستطيع أن تكتشف بعقلك البسيط أو المركب أو المتوسط أن محمد رسول الله ﷺ صادق ، وأن القرآن ليس من صنع البشر ، لأن هذا القرآن الكريم وكذا سيدنا محمد قد توقع أشياء كبرى قد حدثت بعد عدة سنوات أو آلاف السنين وكذلك هناك إعجاز علمي في القرآن الكريم في عشرات أو مئات الآيات ، ولكن هناك فرق بين وجود حقائق علمية في القرآن ووجود نظريات قد تثبت صحتها أو خطئها فيما بعد ، ومشكلة الذين كتبوا أو تكلموا في الإعجاز العلمي للقرآن قد وسعوا الدائرة بأكثر مما تتسع ، وحاولوا تحميل الأشياء أكثر مما تتحمل فأخطؤوا فكان رد الفعل من البعض رفض هذا العلم كله فأهدروا أمراً هاماً هو من دلالات إعجاز القرآن في هذا العصر الذي يسمى عصر العلم ، ذلك بأن إعجاز القرآن متعدد ومتنوع ولكل عصر ما يلائمه

من هذا الإعجاز ، فقد كان إعجازاً لغوياً لأهل مكة أصحاب الشعر والبلاغة أو إعجازاً قانونياً تشريعياً لأهل القانون إو إعجازاً وجدانياً لذوي النفوس الشفافة وإعجازاً علمياً لهذا العصر ، ولا تقلق أخي المسلم فإن مجرد قراءة القرآن تعطيك بعض ملامح هذا الإعجاز العلمي ، ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ . أو تقرأ كتاباً في الإعجاز العلمي للقرآن شريطة أن تلتزم فقط بالحقائق العلمية .

أما بالنسبة لي فإنني آمنت بإعجاز القرآن وأنه من عند الله وليس محمد وهكذا فإن محمد نبي مرسل ﷺ من أشياء بسيطة جداً ، انظر إلى قول الله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم]. وقد حدث هذا فعلاً، فكيف عرف النبي ﷺ أن الروم سينتصرون على الفرس بعد بضع سنين، وتصور أن العكس قد حدث لو لم يكن الرسول مبعوثاً من الله الذي يعلم المستقبل وحده ، والرسول ذاته يقول : قل ﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ . فالرسول إذن لا يعلم الغيب وهذه الحادثة وحدها تدل على صدق نبوة محمد ، ثم انظر إلى قول الله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ . ومن المعروف أنه لم يحدث في كل التاريخ موالاة بين اليهود والنصارى إلا في هذا العصر وتحديداً بعد أن تحالفت أوروبا وأمريكا مع إسرائيل ، وهذه الآيات تتحدث عن الغرب وإسرائيل، ولا تتحدث عن نصارى الشرق مثلاً أو اليهود الذين يرفضون إقامة دولة إسرائيل لأنهم تنطبق عليهم الآية ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ، فأمريكا وإسرائيل هم من قاتلنا في الدين وأخرجونا من ديارنا انظر ماذا

فعلوا بفلسطين والفلسطينيين ومصر والأردن وسوريا ولبنان ؟ ثم ماذا فعل الأمريكيون في العراق وأفغانستان والصومال والجرائم أكثر من أن تحصى ؟

وهكذا فإن تلك الآيات هي من الإعجاز المستقبلي في القرآن الكريم حيث تحدثت عن حالة حدثت بعد ما يزيد على ١٣٠٠ سنة ، والآية تحذر الذين يتحالفون مع أمريكا وإسرائيل وإذا ما ناقشت هؤلاء الذين يسارعون إلى أمريكا وإسرائيل أو أمريكا وحدها تراهم يقولون نحن نخدعهم ، نحن نخاف منهم ، نحن نكسر عدوانهم بإرضائهم والحوار معهم . . . الخ وهذا عين ما قاله القرآن الكريم وكأن محمد ﷺ كان يسمعهم قبل ألف و ٣٠٠ عام ، ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ وانظر إلى قول الله تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فبعد عصر مراهقة العلم وظن البعض أن العلم قادر على كل شيء ، تبين أن الإنسان بكل علمائه وعقوله لا يستطيع أن يحيط بالحقائق العلمية بإظفر واحد من أظافر اليد اليمنى أو اليسرى أو يدرك أسرار العقل مثلاً أو ما يتم في الأمعاء فضلاً عن الإحاطة بدراسة كل الكائنات والخلايا والطحالب والحيوانات والطيور والبحار واليابسة بل إنه لو أراد دراسة كل شيء عن سنتيمتر واحد مربع في أي مكان بما فيه من مادة وفيروسات وبكتريا لاحتاج إلى مئات السنين مثلاً ، ومن ثم فلو أراد الإحاطة بكل شيء وهو لن يحيط لاحتاج عمراً يساوي عمر الكون تريليونات المرات وهذا رقم صغير جداً .

انظر كذلك لتدرك أن الإسلام دين الحق إلى تركيب العين مثلاً بل تركيب جهاز الشبكية داخل العين ، بل أحد طبقات جهاز الشبكية الذي يتكون من طبقة رقيقة بها خمس طبقات في إحدى الطبقات ٦ مليون عصية عصبية مرتبطة بطريقة معينة لو تغير تركيبها أو شكلها أو واحدة من تلك العصيات العصبية لما رأى الإنسان ، وعلم التباديل والتوافيق والاحتمالات الرياضية في ترتيب ٦ مليون عصية عصبية يحتاج إلى عدد لا يمكن لكمبيوتر ذاته أن يحسبه ، وهو يزيد على

كل الأرقام المعروفة وغير المعروفة ، إذاً لو كان الأمر مجرد صدفة لاحتاجت زمن ضعف زمن الكون تريليونات المرات إلى ما لا نهاية ، وهذا يدل على وجود الله ، وهذا من الإعجاز القرآني ، لأن القرآن الكريم يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ولا شك أن أي عالم فلك أو مضطلع جيد على علم الفلك يدرك تلك الآيات ، وكذلك علماء البيولوجي والطب والكيمياء وغيرها إذا ما درسوا أي عضو في الإنسان لاكتشفوا ذلك .

وهكذا فأنت تؤمن بالله الحق والدين الحق ، فلا تقلق .

لاتخاف من دراسة الفلسفة مثلاً ، لا تخاف فأنت مسلم تؤمن بأن الله هو الذي خلق الإنسان ، وأودع في عقله عدد من البديهيات العقلية التي لا يمكن لا للعقل ولا للحس ولا الإدراك المادي أن يحصل عليها ويسمونها في فلسفة المعرفة: البديهيات العقلية مثل « عدم التناقض » ، فلا شيء يجتمع مع نقيضه ، ولا يمكن إثبات الشيء وعكسه في نفس الموضوع ، وقانون العلية والسببية ، وقانون عدم وجود شيء في أكثر من مكان في نفس الوقت ، وقانون أن الكل أكبر من الجزء وهكذا .

وليقل لي الملحدون: هل يستوي العلم والرياضيات بدون هذه البديهيات ؟ ومن أين جاءت هذه البديهيات للإنسان لو كان ذا مرجعية مادية ، أليست قبساً من نور الله ومن روح الله ؟ فسبحان الله العظيم .

***

لا تحزن ولا تقلق ولا تهن وأنت الأعلى ولا تخاف ولا تخشى من شيء .

ولكن عليك أن تدرك دورك في الحياة ، وهل أنت قادر عليه ، فإذا لم تكن قادراً عليه فإن الله حاشا لله قد كلفك بما لا طاقة لك به ، وهذا مستحيل ، إذن أن تعرف دورك فهذا من صميم إحساسك بالأمان والراحة وعدم الحزن أو القلق أو

الخشية.

مهمتك في الحياة ليس الانتصار ولا إخضاع الأعداء، بل فقط أن تكون شاهداً على الناس، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وقد قام الرسول ﷺ بواجب الشهادة علينا، وعلينا أن نقوم بواجب الشهادة على الناس، فكيف تكون الشهادة على الناس: بأن تقول الحق ولا تخشى في الله لومة لائم، فإذا لم نكن قادرين على قول الحق فلنصمت ولا نشهد زوراً وكذلك بالصدق وعدم الكذب.

ولذا فإن الرسول ﷺ قال أن المسلم ممكن أن يقتل أو يسرق أو يزني ولكنه لا يكذب، لأن الصدق مرتبط بأداء الشهادة على الناس.

لا تقلق ولا تحزن، لأنك غير مطالب بالانتصار على الكفار، كل ما يعينك أن تكون صادقاً وشاهداً نزيهاً، وتأمل معي أن الحياة التي سجلها التاريخ مثلاً حوالي عدة آلاف من السنين من ٤ آلاف إلى عشرة آلاف في أقصى التقديرات، وما وصلنا أنها في معظمها تاريخ من أحداث الظلم والجور والتعسف فيما عدا فترة لا تزيد عن ٣٠ : ٤٠ سنة هي عصر الرسول والخلفاء الراشدين، إذن الدنيا قائمة على الظلم والانحطاط لأن حياة وحكم دولة الرسول والخلفاء الراشدين لا تمثل في نسبة الزمن الظالم إلا حوالي ١ إلى ٣ ٪ من الزمن إذن الأصل في الدنيا والدول والمجتمعات هو الانحطاط، وهذه حكمة من الله تعالى، إذ لو كانت الدنيا دار عدل لما كان هناك مبرر للآخرة والجزء والعقاب والجنة والنار، إذن عليك أن تبدأ من حقيقة أن الدنيا دار ظلم وأن عيك أن تناهض الظلم في حدود طاقتك ولا تقول إلا الصدق ولا تشهد زور، وأنه ليس عليك تحقيق النجاح، بل من شبه المستحيل إلا استثناء تحقيق هذا النجاح، ومن ثم لا تشغل نفسك بالنتائج ولعل هذه أحد أخطاء الحركات الثورية في التاريخ وخاصة الإسلامية منها التي تتنازل عن ثوابتها وأخلاقياتها لكي تحقق نجاحاً ولا تدرك أنها تفعل المستحيل أولاً

وأنها تسيء للدين ثانياً ، وتهدر دورها الحقيقي في مقابل دور وهمي .

لا تقلق فأنت تملك المنهج الصالح والنظام الصالح والتصور الصالح شريطة أن تدرك حدود دورك فلا تتعب نفسك في أدوار ليست لك . عليك أن تقيم الحجة على الناس فمثلاً لا تعترف بأمريكا لأنها قامت على إبادة شعب آخر حتى لو فعل الجميع ذلك ولا تعترف بإسرائيل ، ولا تتعاون مع الظالمين ، ولا تبحث عن رزقك بالكذب أو الجريمة ... الخ .



الدولة المستحيلة

للأستاذ د. وائل حلاق وهو مفكر من أصل فلسطيني وأستاذ في علم الاجتماع وهو بالمناسبة مسيحي وعلماني كتاب بعنوان الدولة المستحيلة ، يرى أن من المستحيل إقامة دولة إسلامية في إطار النظام العالمي السائد في العالم ويشرح أسباب ذلك من ناحية علم الاجتماع .

وبديهي أنه لكي تقوم دولة إسلامية قادرة على تطبيق الشريعة فإن هذا يعني أن تلك الدولة ستفرض قواعدها على العالم شاء أم أبى وهو ما يعني أن الهيمنة في الدنيا لصالحها ، أو على الأقل هناك تعادل حضاري أو توازن رعب متبادل .

ولعل هذه الحقيقة – حقيقة أن العالم الإسلامي أو الحضارة الإسلامية الآن هي في حالة هزيمة تكنولوجية عسكرية اقتصادية سياسية ، وهذا ما يقود البعض إلى القول أن الغرب أفضل منا ، وهذا غير صحيح ، فالقوة العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية لا تعني الأفضلية ، بل أن المسلم أفضل إنسان في الكون لأنه لم يخضع حتى الآن للمرجعية المادية أو اللا معيارية التي تسود العالم والتي تفضي إلى التوحش والحوسلة والتشيؤ ودمار الإنسان وعدم مرجعية الأخلاق وغيرها ، فالذي يتمسك بدينه ومن ثم أخلاقه – وهو المسلم حتى الآن ، لأن عدد من يذهبون إلى المساجد أكثر بكثير من عدد من يذهبون إلى الكنائس ، ومن ثم فإن الذي سيحافظ على العالم من الخضوع الكامل للعلمانية والمادية واللا معيارية حتى الآن هو المسلم ، وعلى كل حال فلا تحزن أيها المسلم حتى لو خضع العالم كله للمادية أو اللا مرجعية أو اللا معيارية أو غيرها ، لأنك تدرك أن ذلك ممكن أن يحدث لأن الله أخبرنا بذلك ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا

أَوْ نَهَارًا ﴾ .

بمعنى أنه من الممكن أن تصبح المادية قادرة على السيطرة على كل شيء ويصبح الإنسان مجرد مادة استعمالية حتى ولو كان يسيطر بالعلم على كل المواد ويحقق أعلى إنتاج بمعنى أن يتصور أهل الأرض أنهم قادرون عليها فيأتي أمر الله وتقوم القيامة .

في عالم تسوده الرأسمالية وما يسمى بحقوق الإنسان وحقوق المرأة المزعومة وحركات التمركز حول الأنثى وقوانين مؤتمرات الأسرة وزعم أمريكا والغرب أن هناك قيماً حضارية مطلقة ينبغي الخضوع لها ، فإن من المستحيل تطبيق قواعد الاقتصاد الإسلامي مثلاً أو حتى مجرد تحريم الربا ، وهذا النظام الاقتصادي الربوي – لا رأسمالية بدون بنك ولا بنك بدون ربا . فإن من المستحيل استمرار الدولة الإسلامية والأمر نفسه بالنسبة للقوانين والشرائع الإسلامية ولا بد من تطويع القوانين الإسلامية لتصبح ملائمة للعصر فتظهر ما يسمى بالليبرالية الإسلامية ، أو ما يسمى بالحل الوسط التاريخي بين الحضارة العلمانية المادية والحضارة الإسلامية وقد حدث هذا بالفعل حيث تخلت حركات إسلامية عن الإسلام وقواعد وثوابت الدين وعبدت آلهة الغرب يوماً وعبدت الله يوماً آخر مثل أردوغان في تركيا وراشد الغنوشي في تونس والإخوان المسلمين في مصر ، ويزعم هؤلاء أنهم يفعلون ذلك لكي يفوتوا الفرصة على الغرب وأمريكا لضربهم ، أو كنوع من المرونة أو أنهم يخدعون أمريكا والغرب والعلمانيين وهي كلها أمور مضحكة لأن الله ذاته قد رد على هؤلاء بقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ ، بمعنى أن منطق من يقبلون أن يهادنوا الغرب أو يقيموا علاقات أو ود مع أمريكا أو الغرب في قلوبهم مرض .

نجد مثلاً أن الحركات الإسلامية مثل أردوغان في تركيا يأخذ الموقف وعكسه في اليوم الواحد فتارة مع أمريكا وتارة مع روسيا ، وتارة مع بشار الأسد وتارة ضده ، وتارة مع داعش وتارة يضربها ... وكذلك الموقف بالنسبة لراشد الغنوشي الذي تنازل عن ثوابت إسلامية كثيرة من أجل قبول الغرب به ، أو أن أردوغان يحل الزنا وإعلانات الزنا وكذا الخمر والميسر ويفتخر بذلك قائلاً أنه لا يفرض سلوكاً معيناً على أحد ثم يدعي الإسلامية وكذلك الإخوان المسلمين مثلاً الذين يذهبون إلى أمريكا لإنقاذهم ويقولون أنه من باب المرونة والحكمة . من الأفضل طبعاً أن نسقط وهم السلطة والدولة ونكتفي بموقف الضمير الحي أي إقامة الشهادة على الناس ، أفضل من الوقوع في الشرك فنعبد إله الغرب يوماً ونعبد الله يوماً آخر ، بمعنى أن العلمانيين يعبدون إله الغرب طول الأسبوع والإسلاميون يعبدونه يوماً بعد يوم .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، إذ لو كان الأمر موضوع مرونة ودهاء وسياسة ولف ودوران وكذب ، لقبل سيدنا رسول الله ﷺ أن تجمع له قريش المال فيكون أغناهم ، وأن يجعلونه رئيساً عليهم كما عرضوا عليه فرفض وقال : «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري**» وكان من الممكن مثلاً أن يصبح رئيساً وغنياً ثم يدعو إلى الإسلام على طريقة منطق هؤلاء الإسلاميين الذين يقولون سنداهنهم ونقبل بشروطهم ونتخلى عن الثوابت حتى نصبح يوماً ما ، أقوياء فنعلن ديننا الحقيقي ألا ترى أن ذلك نوع من الذين في قلوبهم مرض .

أما أنت أيها المسلم فلا يهمك أن تقيم سلطة أو دولة إلا بشروطك فإن توفرت فأهلاً بها وإن لم تتوافر أظل شاهداً على الناس .

وفي الحقيقة فإنه في حالة الهزيمة الحضارية أي أن المسلمون أقل قوة ومكانة مادية من غيرهم فإن الأمر يسير بثلاثة طرق إما إقامة دولة إسلامية ومواجهة العالم كله وقد فعلت داعش ذلك ولم تتخل عن أي من ثوابت الإسلام الذي فهمته حتى

ولو كان هناك أخطاء في منهجها أو سلوكها ، المهم أنها متسقة مع نفسها وصادقة مع نفسها ، وإما أن نهادن الغرب وأمريكا ونؤمن ببعض الكتب ونكفر ببعض ونعبد الديمقراطية وحقوق المرأة والليبرالية والعلمانية يوماً ونعبد الله يوماً ، وإما وهذه الثالثة هي أفضل الحلول أنه في حالة الهزيمة الحضارية بمعنى أنني غير قادر على فرض أسلوبي على العالم ، فإنه يكفي أن أصبح جماعة ضمير بمعنى أن أقف موقف نظري وإعلامي فقط من أي قضية فأرفض مثلاً إسرائيل وأمريكا والاستعمار وأي ظلم يقع على أي إنسان في أي مكان .

تخيل مثلاً لو أن الحركات الإسلامية انصرفت عن قصة الدولة المستحيلة هذه وعن السلطة وتحولت إلى جماعة ضمير فأعلنت أنها لا تعترف بأمريكا لأنها دولة قامت على إبادة شعب آخر ولا تعترف بإسرائيل ولا تعترف بالرأسمالية أليس هذا هو في حد ذاته نوع من الدعوة إلى الإسلام في العالم كله ، لأن الناس سيكتشفون أنه ما زال هناك بشر لا يقرون الباطل حتى لو أصبح أقوى دولة في العالم ، وأن هناك أناس يقولون الحق ولا يبالون بالنتائج .

لا تقلق أخي المسلم ولا بد أن تدرك أنك الآن لست في الدولة العباسية التي ينظر الخليفة المسلم فيها إلى السحابة ويقول: « أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك»، أما الآن فمن يقول ذلك هو رئيس أمريكا مثلاً بوش أو بوتين أو ترامب، ومن ثم فإنك لا تحزن ولا تحول المستحيل ولا تقلق إذا اكتفيت بأن تكون ضمير يشهد بالصدق ولا يكذب ويقيم الشهادة برأيه وسلوكه على الناس .

***

نعم الحضارة الغربية متفوقة علينا . وهذا لا يحزننا بل ربما يفرحنا ، لأننا كنا سادة العالم حوالي ١٠٠٠ عام ولم نرتكب جرائم حضارية مثلما فعلت الحضارة الغربية ، ولم نكره الناس على الإسلام ، رغم أننا كنا الأقوى وكان قانون تلك الأيام أن يكون الناس على دين ملوكهم ، ومع ذلك ظلت هناك أقليات مسيحية ويهودية

وزرادشتية ومجوسية وملحدين في قلب الحضارة الإسلامية وفي قلب العالم الإسلامي ، وهذا يدل على تفوقنا الأخلاقي وليس المادي فقط ، أما الحضارة الغربية فهي قد أبادت شعوب أمريكا واستراليا ، واسترقت السود ونهبت العالم في عصر الاستعمار ، وألقت القنابل الذرية وأنشأت دولة إسرائيل وقتلت الملايين في مذابح وحروب من الحرب العالمية الأولى والثانية إلى حرب الخليج وغزو العراق وجرائمها تحتاج إلى مجلدات ، يستوي في ذلك الرأسماليون والشيوعيون والاجتماعيون والملكيون والجمهوريون ، فالكل ارتكب الجرائم التي لا تعد ولا تحصى .

وهكذا فأنت يا أخي المسلم لا تحزن ولا تقلق ، لأنك على خلق لا يوجد في الإنسان الغربي إلا بعض الاستثناءات التي تؤكد القاعدة ، وما يهم الإنسان بوصفه إنسان هو الخلق وليس التقدم المادي لأننا نؤمن أن الدنيا ليست إلا محطة قصيرة إلى الآخرة ، المهم ألا نتورط معهم ولا نقرهم ولا نهادنهم ولا نسارع إليهم كما يفعل البعض منا من حكومات وجماعات إسلامية وسياسية . . . الخ .

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ، وهذه آية من آيات إعجاز القرآن ، لأن المؤمن لا يحزن وهو العالي دائماً سواء كان متقدماً مادياً على الآخرين أم متخلفاً عنهم ، وهذا بالطبع لا يعني العجرفة والتعالي الزائف والغرور، بل المسئولية بإقامة الشهادة على الناس وأن يمتلك المسلم روح الانتصار وليس مادية الانتصار أو عجرفة القوة ، بل الإحساس بالانتصار دائماً حتى وهو في أصعب مواقفه .

انظر إلى سيدنا عيسى ابن مريم نبي الله ابن الإنسان ، الذي رفض أن يداهن الدولة الرومانية ، بل انعزل عنها وأعلن عن سلطة الروح في مقابل سلطة الدولة المادية والسياسية والزمنية .

لقد كان عيسى ابن الإنسان يأكل من العسل البري وينام في الشارع أي لا يملك بيتاً ولا يعمل عند الدولة الرومانية ، وقاد ثورة ضد الشكل لحساب الجوهر والتدين الزائف الذي يمثله الغربيون والمتورطين مع رأسماليين وجهاز الدولة من اليهود ، وهكذا كان منتصراً حتى لو كان قد سيق إلى الصليب وظنوا أنهم صلبوه ، ولكن الله أنقذه من الصلب بإرادة مباشرة منه تعالى سبحان الله .

وانظر إلى سيدنا الحسين بن علي ابن بنت رسول الله ﷺ كيف خرج وهو يدرك تماماً أنه مهزوم دنيوياً ومادياً لأنه لم يكن أمامه سوى أن يقاتل بسبعين من أهله ضد جيش جرار ، ولو انسحب لما عاب عليه أحد ، ولكن كان سيتم تفسير الإسلام تفسيراً عائلياً يجعله دين لا علاقة له بالله أو بمحمد ، الحسين فضل الموت لإعلاء الحق وعدم الاعتراف بالباطل فانتصر رغم شكل الهزيمة ، انتصر للإنسان وللقيمة وللدين ولمحمد ولله تعالى .

وهكذا نتعلم أن الموقف يكون واضحاً أو السكوت والتحول إلى ضمير بالرفض الساكن أو إقامة الحجة بالكلام فقط أفضل ألف مرة من أن نعمل مع الرأسماليين وأمريكا ونبرر لها ثم نقول أنها خطة لتمكين الإسلام وتصدر مؤلفات وأقوال ومواقف تبرر هذا وتقعده أي تجعله قاعدة شرعية ، فيتم تزييف الإسلام وإخراجه من الإسلام ويصاب الناس بالبلبلة وتقليد القيم البراجماتية وإخضاع الدنيا من ثم للمادية واللا معيارية بدون نتوءات أي أن تكون مهمة الإسلاميين الذين يقبلون ذلك – وهم جميعاً ما عدا داعش ولا يعني هذا أن داعش لا تخطئ أو ليست لها أخطاء وخطايا ولكن على مستوى الولاء والبراء فهم واضحون حسب ما يتصورون ويكفي أن ثمانين دولة تحاربهم ويواجهونها بصدورهم – أن تكون مهمة الإسلاميين هي علمنة الإسلام من داخله والقضاء على مرجعيته من داخلها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة

لا تقلق ولا تحزن ولا تيأس ، فأنت ترفض العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة معاً ، لأنهما شيء واحد أو مراحل في متتالية نماذجية كما يقول عبدالوهاب المسيري مؤلف كتاب «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» ، والرجل لأنه بلا حسابات ولم ينتم يوماً إلى جماعة أو حزب أو شلة فتشوه وجدانه وتشوه موضوعيته ، وهو ضد العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة معاً ، مع أن الحركات الإسلامية توافق شيئاً ما على العلمانية الجزئية وتحاول أن تفصلها عن العلمانية الشاملة ما عدا داعش طبعاً .

وفي الحقيقة فإن فهم موضوع العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة مدخل صحيح وهام للمسلم لكي لا يحزن ولا يقلق ولا ييأس .

العلمانية بالنسبة لي وللدكتور عبد الوهاب المسيري هي المرجعية المادية أو اللا مرجعية في ظاهرة ما بعد الحداثة وهي دين الغرب وديدنه وهي ملحدة تنكر وجود الله ، ولا فرق بالنسبة لي بين العلمانية الجزئية أو العلمانية الشاملة بل هي مراحل زمنية ومكانية للعلمانية وهي تقود إلى متتاليات نماذجية تؤدي إلى جعل الإنسان مادة وإنهاء فكرة وجود الله تماماً أو تقود إلى سيولة شاملة حيث لا مرجعية أصلاً بل نسبية مطلقة ، فليس هناك علمانية طيبة وأخرى شريرة أو علمانية بيضاء وأخرى سوداء بل العلمانية هي مرجعية المادة سواء أكانت جزئية أو شاملة أي كافرة وهي التي أنتجت الفاشية والنازية والرأسمالية والشيوعية ، وهي التي أنشأت الإمبريالية والغزو الغربي والحروب والمجاعات وتسليح الإنسان وجعله شيئاً مادياً وهي بالضرورة ضد الدين والأخلاق والتراحم ، ضد

الأسرة والفرد والإنسان ضد كل ما هو جميل في العالم .

وبديهي أن العلمانية تقود إلى فناء العالم أو تعاسته يقول عبد الوهاب المسيري في كتابه «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» – دار الشروق القاهرة – ٢٠٠٢ ص ١٠٢ « لا يمكن أن يكتب البقاء لمجتمع إنساني إن كان أعضاؤه يعتقدون أنهم يعيشون في عالم لا معنى له » ويرى جلال أمين « أن العلمنة ليست تغريباً وحسب بل هي أمركة بالدرجة الأولى » .

ويرى عبد الوهاب المسيري أن هناك التقاء بين الإسلاميين وغير الإسلاميين في القبول بالعلمانية الجزئية فإن كـل مـن محمد أحمد خلف الله وحسين أمين ووحيد عبد المجيد وفؤاد زكريا ومحمود أمين العالم ومحمد عابد الجابري يريدون المحافظة على الحيز الإنساني ، حيز الهوية والخصوصية والثوابت والقيم الأخلاقية وهم مع الديمقراطية والعقلانية والعلمانية الجزئية .

يقول عبد الوهاب المسيري ص ١٢٢ – المرجع السابق – أن فهمي هويدي يميز بين تيارين علمانيين يسميهما المعتدلين والمتطرفين وهما يقابلان إلى حد ما العلمانيين الشاملين والجزئيين في مصطلحنا ، ويضيف عبد الوهاب المسيري نقلاً عن فهمي هويدي « أن فهمي هويدي يرى ضرورة قبول التيار العلماني المعتدل المتصالح مع الدين ، وهو التيار الذي يتحفظ على تطبيق الشريعة لا لأنه ضدها – بل هو ضدها – ولكن لأن المنتمين إلى هذا لتيار يحسبون أن هذا التطبيق قد يهدد قيماً معينة يدافعون عنها مثل الحرية والديمقراطية والمساواة وما إلى ذلك وهو موقف شريف يتعين فهمه واحترامه – والكلام مازال لفهمي هويدي كما نقله عنه عبدالوهاب المسيري ص ١٢٣ من كتاب «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» ، وعلى الإسلاميين – والكلام لفهمي هويدي – أن يتعاملوا معهم على قاعدة الإعذار أولاً ثم الحوار ثانياً ، لاقتناعهم بأن المشروع الإسلامي لا يهدد تلك القيم التي يدافعون عنها ، فالدعوة إلى التعامل مع المشروع العلماني المعتدل لا تعني القبول به ،

ولكنه تعبير عن حرص على توفير حق التعبير والمشاركة لأصحاب الرأي الآخر ، دفاعاً عن مصلحة المجتمع وسعياً إلى إنجاز المشروع الوطني العام الذي هو ملك للأمة بمختلف قواها وتياراتها وليس ملكاً لفصيل دون آخر » .

ويضيف فهمي هويدي نقلاً عن المسيري ص ١٢٣ « إننا نذهب إلى أن كل تيار سياسي يحترم عقيدة الأمة ويلتزم بنصوص الدستور المعبرة عن ذلك ، يصبح من حقه أن يكتسب الشرعية وأن يكون شريكاً في الحياة السياسية للمجتمع الإسلامي ينطبق ذلك على مختلف فصائل العلمانيين سواء كانوا ليبراليين أو قوميين أو ناصريين أو ماركسيين ، أما أهل التطرف العلماني المخاصمين للدين فلا مكان لهم في إطار الشرعية ، إذ أنهم لا يهددون عقيدة المسلمين وحدهم ولكنهم يهددون الإيمان نفسه إسلامياً كان أم مسيحياً أم يهودياً ، أن الحوار بين فصائل الأمة المختلفة ممكن في إطار التعريفات الجزئية » .

ويعلق الدكتور عبد الوهاب المسيري على ذلك قائلاً « ص ١٢٤ » « ولعل الذين قرؤوا مقال فهمي هويدي لاحظوا أن مطالبة الإسلاميين بتأكيدهم قبول التعددية التي تشمل التيار العلماني كان موقفاً التقى عليه رأي آخرين من أهل الفقه والنظر وفي مقدمتهم الدكاترة يوسف القرضاوي وأحمد العسال ومحمد سليم العوا وسيف عبد الفتاح وأبو العلا ماضي وعادل حسين» .

ويختم الدكتور عبد الوهاب المسيري القول قائلاً: « ومما يجدر ذكره أن فهمي هويدي ليس وحيد في موقفه هذا ، بل يمكن القول بأن هذا الرأي هو الرأي الممثل للتيار الإسلامي ويمكن أن نضيف إلى الأسماء التي أوردها الأستاذ فهمي هويدي في مقاله الأسماء التالية : راشد الغنوشي « تونس » بارفيز منظور «باكستان» عزام التميمي « فلسطين » أحمد داود أوغلوا « تركيا » طه جابر العلواني «العراق» وعبد المجيد أبو سليمان « السعودية » ومجموعة المعهد العالي للفكر الإسلامي وغيرهم عشرات .

وهكذا فإن عبد الوهاب المسيري يرى أن هناك التقاء بين فهمي هويدي ويوسف القرضاوي وسليم العوا وسيف عبد الفتاح والمذكورين السابقين جميعاً مع محمود أمين العالم وفؤاد زكريا ومحمد أحمد خلف وآخرين وهذه مأساة كاملة بالنسبة للإسلام السياسي ، الذي بلع صعم علمنة الإسلام من الداخل أو القبول بما يسمى بالعلمنة الجزئية مع أنه ليست هناك إلا علمانية واحدة ، وهكذا فهمنا لماذا دعمت إنجلترا حسن البنا مثلاً؟؟ ولماذا دعمت أمريكا أوباما وهيلاري كلينتون محمد مرسي وخيرت الشاطر؟؟ ، ما دام هذا النوع من الإسلام يؤدي إلى تفسير الإسلام تفسيراً علمانياً وعدم احترام الشريعة ، ومن ثم الفصل بين الشريعة والعقيدة وعلمنة الإسلام من الداخل ، أليس هذا أسهل من الغزو العسكري وإرهاق جيوش الغرب في القضاء على الإسلام .

هذا المشروع الإسلامي التغريبي العلماني لا يمت للإسلام بصلة ولعل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ .

وهكذا فإن من يقبل بالعلمانية الجزئية ينطبق عليه هذا الوصف وسوف ينال الذل في الدنيا ضعف الحياة والآخرة « ضعف الممات » ثم لا يجد له نصيراً حيث يأتي ترامب بدل أوباما وكلينتون فيذهب الإسلاميون للاستنجاد بأمريكا لتنصرهم، فلا تستمع لهم وتلقيهم في مزبلة التاريخ؟؟! .

وإذا حللنا مضمون كلام فهمي هويدي نجد أنه يقبل بالتعاون مع العلمانية الجزئية ، وهو يعتبر نفسه بديلاً لأمة الإسلام ، ومن ثم فهو يعطي جزء من هذه الأمة للعلمانيين ولا بأس في ذلك ، ثم يعتبر الوطن هو المرجعية وليس الله ، فالمشروع الوطني هو الغاية وليس الشهادة على الناس بالحق كما هو واجب المسلم وهكذا فإن الإسلامي يسيء إلى الإسلام ، ولم يبق غير المسلم لنخاطبه بالتمسك بالله ومحمد والإسلام والعقيدة والشريعة ويرفض كل أنواع العلمانية

وتجلياتها من الديمقراطية والرأسمالية والشيوعية والقومية وما بعد التاريخ والمرجعية المادية وما بعد الحداثة واللا مرجعية والتمحور حول الأنثى والصهيونية والفاشية والنازية ... الخ وحتى لو كان الإنسان هذا فرداً فهذا يكفيه فالله يحاسب البشر فرداً فرداً وليس جماعات وقطعاناً .

ولعل أخطر ما ارتكبه الإسلاميون في حق الإسلام أنهم تصوروا أنهم بديل للأمة وأنهم هم الإسلام ، وبدلاً من أن يكونوا خميرة تذوب في العجين فيصلح للخبيز ، تصوروا أن عليهم أن يلتهموا العجين وهو أمر مستحيل طبعاً ، وهكذا كان الاضطراب الحادث في المجتمعات الإسلامية بسبب الإسلاميين بل إنهم تحولوا إلى ما يشبه شعب الله المختار ، وبدلاً من أن يعبدوا الله جعلوا الله يحل في جماعتهم فيعبدون الجماعة أو التنظيم بدلاً من أن يعبدوا الله ، فمن يخالفهم كافر يحق لهم قتله أو سبه بأقبح الصفات ، ومن لا يؤيدهم فهو خارج الملة بصورة من الصور حتى ولو كانت استنباطاً وأصبح المسلم داخل الجماعة غير المسلم خارج الجماعة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ وأصبحت الملائكة تنزل رابعة العدوية ومحمد مرسي يصلي إماماً بسيدنا رسول الله ، بل ووصل الأمر بأحدهم أن يقول على منصة رابعة التي يسيطر عليها الإخوان وهو الشيخ فخري السعيد أن من لا يؤمن بعودة محمد مرسي فقد كفر بالله ورسوله والإسلام وهكذا أضاف شرطاً إلى شروط الإسلام التي يعرفها المسلم وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين والقضاء والقدر .... .

وإذا كان عبد الوهاب المسيري يرى أن الله حل في الصهيونية فأصبحت هي المرجعية وهي الله نفسه وهي المطلق والنسبي معاً وما بداخلها هو الصحيح حتى لو كان قتلاً وتقتيلاً وتشريداً للفلسطينيين ، فإن الأمر قريب من هذا مع الجماعات التي تعتبر نفسها صحيحة على طول الخط ، وما يقوله قادتها هو الصواب وأي رأي تراه هو الدين بعينه ، إنها نفس الفكر الحلولية .

الخوارج والشيعة

تحويل الفرق السياسية إلى فرق دينية

في كل دين وكل اتجاه سياسي كبير بل وكل تيار فكري عميق – يظهر اختلاف في تفسير الفكرة بين متشدد وشكلي ومعتدل ويميل إلى الجوهر ، أو يحول هذه الفكرة إلى شخصنة عائلية أو قبلية ، وهكذا فإنه كان من الطبيعي أن تظهر في الإسلام حركات متشددة لها تفسير معين للدين مثل الخوارج وأخرى تربط الدين بأسرة معينة « آل البيت » مثل الشيعة ، والمشكلة هنا أن الفكرة تكون في البداية خلاف سياسي ثم ما يلبث أن يتحول إلى خلاف ديني ، بمعنى أن كل مجموعة ترى رأياً سياسياً تحاول أن تقول أنه موقف ديني ويأتون بالنصوص وأحياناً يؤلفونها لتأييد موقفهم ثم يبدؤون في تكفير من يخالفهم في ذلك ، ويعتبرونه مرتداً عن الدين وفيما عدا أهل السنة والجماعة التي لم تكفر أحداً سواء الخوارج أو الشيعة أو المعتدلة ... الخ – فإن كل الفرق الأخرى مارست قدراً من التكفير والإخراج من الملة – وبديهي أن تلك الفرق امتدت فكرياً بطريقة جزئية أو كلية لتظهر فرق دينية أو سياسية أخرى تحمل نفس السمات حتى ولو لم تكن منطبقة انطباقاً هندسياً على الفرق الأولى ، وهذه مشكلة لا يزال العالم الإسلامي يعاني منها، وبديهي أيضاً أنه حتى داخل الفرقة الواحدة ، تظهر فرق متعددة يكفر بعضها بعضاً .

فلا تقلق أخي المسلم ، طالما أنك لم تكفر أحداً من المسلمين الذين ينطقون بالشهادتين ويصلون إلى الكعبة .

الخوارج

يقول الدكتور محمد أبو زهرة في كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٩٦ : « ظهر الخوارج في جيش علي – رضي الله عنه – عندما اشتد القتال بين علي ومعاوية في صفين ، وذاق معاوية حر القتال ، وهم بالفرار حتى أسعفته فكرة التحكيم ، فرفع جيشه المصاحف ، ليحتكموا إلى القرآن ولكن علياً أصر على القتال حتى يفصل الله بينهما ، فخرجت عليه خارجة من جيشه تطلب إليه أن يقبل التحكيم فقبله مضطراً لا مختاراً ، وكما اتفق مع خصومه على أن يحكما شخصين أحدهما من قبل علي والآخر من قبل معاوية ، واختار معاوية عمرو بن العاص وأراد علي بن أبي طالب أن يختار عبد الله بن عباس ولكن الخوارج حملته على أن يختار أبا موسى الأشعري ، وانتهى أمر التحكيم إلى النهاية التي انتهى إليها ، وهي عزل علي وتثبيت معاوية ، واشتد بهذا التحكيم ساعد البعض الذي يقوده معاوية ، ومن غريب هذه الخارجة « الخوارج» التي حملت علياً على التحكيم وحملته على محكم بعينه ، أن جاءت من بعد ذلك واعتبروا التحكيم جريمة كبيرة ، وطلبت من علي أن يتوب عما ارتكب ، لأنه كفر بقبول التحكيم ، كما كفروا هم وتابوا ، وتبعهم غيرهم من أعر'ب البادية ، وصار شعارهم لا حكم إلا بالله ، وأخذوا يقاتلون علياً بعد أن كانوا يجادلونه » .

ويضيف محمد أبو زهرة « وهذه الفرقة أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن مذهبها ، وحماسة لآرائها ، وأشد الفرق تديناً في جملتها وأشدها تهوراً واندفاعاً ، وهم في اندفاعهم وتهورهم متمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وظنوا هذه الظواهر ديناً مقدساً ، لا يحيد عنه مؤمن ، وقد استرعت ألبابهم كلمة « لا حكم إلا لله » فاتخذوها ديناً ينادون به فكانوا كلما رأوا علياً يتكلم قذفوه بهذه الكلمة ، وقد استهدفتهم فكرة البراءة من سيدنا عثمان والإمام علي والحكام الظالمين من بني أمية ، حتى احتلت أفهامهم واستولت على مداركهم استيلاءً تاماً وسدت عليهم

كل طريق يتجه بهم إلى الوصول إلى الحق ، أو ينفذون منه إلى معاني الكلمات التي يرددونها ، بل إلي معاني حقائق الدين في ذاتها ، فمن تبرأ من عثمان وعلي وطلحة والزبير والحكام الظالمين من بني أمية سلكوه في جمعهم ».

وهكذا فنحن أمام طائفة من الناس شديدي التدين – تحقر صلاتك إلى صلاتهم وتحقر صيامك إلى صيامهم – وهم شديدي الشجاعة بل والفداء والرغبة في الموت والاستهداف للمخاطر ، وأنهم غير منافقين ، بل يؤمنون بما يقولونه ويفعلونه ، وليسوا طلاب دنيا ومصالح .

وهكذا فإننا يمكن أن نجد التدين الشديد أو الشجاعة الشديدة ، والإخلاص ليست دليلاً على الصحة فاجتماع العلماء أن الخوارج على خطأ ، بل إنهم أيضاً علمونا أنه من الممكن أن يقول الإنسان كلاماً صحيحاً ، ولكنه لا يصيب به الحق، فهم يقولون: « إن الحكم إلا لله » وهذا كلام حق وصحيح تماماً ، ولكن الإمام علي رضي الله عنه رد عليهم بقوله : « كلمة حق يراد بها باطل » .

وهكذا علمتنا تجارب تلك الفترة أن من الممكن أن يكون هناك حق يراد به حق – وهذا هو موقف المسلم – وحق يراد به باطل وهذا موقف ضيقي الأفق . وباطل يراد به باطل وهذا موقف النصابين وغيرهم .

وقد اتخذ الإمام علي رضي الله عنه موقفاً ناضجاً منهم ، فلم يعتبرهم كافرين بل عاملهم كمسلمين بغاة ، ولم يبدأ بقتالهم ، إلا بعد أن مارسوا الأذى على المسلمين والناس ، وقد أحدث الخوارج اضطراباً شديداً في المجتمع الإسلامي – يفعله أشباههم الآن – بدعوى أن الحكم لله ، وبدعوى تكفير عثمان وعلي ومعاوية وغيرهم ومن ثم التبرؤ منهم ومن لم يتبرأ منهم يصبح كافراً مثلهم يجوز قتله ، ووصل بهم الأمر إلى حد أنهم اغتالوا الإمام علي بدعوى التقرب بذلك إلى الله .

ولعل هذا الخلل الكبير في الفهم هو تجربة لنا لكي نفهمها ولا نقع فيها تحت عناوين براقة .

الشيعة

الشيعة نموذج لفكرة تحويل الخلاف السياسي إلى دين ومن ثم إفساد السياسة والدين معاً .

بداية فإن معركة الجمل التي وقعت بين علي وأصحابه وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة ، أي أن الطرفين كل مبشر بالجنة علي وطلحة والزبير والسيدة عائشة – رضي الله عنهم أجمعين – هي زوجة النبي ﷺ في الجنة – ولو كان الصراع صراعاً دينياً لكان أحد الطرفين كافر والآخر مؤمن ، وكيف يكون كافراً والرسول ﷺ بشره بالجنة هل يدخل الجنة كافر ، أم أن الرسول حاشا لله كاذباً ؟

إذن فهو صراع سياسي كل طرف يرى نفسه على صواب والآخر على خطأ ولو ظل الصراع صراعاً سياسياً لانتهى أمره بانتهاء زمنه وظروفه ولكن المشكلة أن تحويله إلى صراع ديني يجعله يمتد في الزمان والمكان ويسبب المشاكل إلى يومنا هذا .

ولو اعتبر شيعة علي أي أنصاره أن صراعه مع طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية وعمرو بن العاص مجرد صراع سياسي كان علي رضي الله عنه على الصواب والآخرون على خطأ لانتهت المسألة بهدوء بانتهاء ظروفها وزمانها ، ولكن الشيعة حاولوا أن يضيفوا بعداً دينياً على الصراع فاضطروا إلى تأويل النصوص وأحياناً ألفوها تأليفاً وانتهى الأمر إلى صراع مازال موجوداً وجرائم ترتكب من أمثال التعاون مع الكفار على أهل السنة مثل الدولة الصفوية .

شيعة علي هم أنصاره الذين انحازوا إلى معسكره السياسي في إطار الصراع مع الخارجين على خلافته وخاصة الأمويين ، وهكذا فإنهم كانوا على الصواب في رأينا

ما دام الأمر أمر سياسة وليس دين .

انتهى الأمر بمقتل سيدنا علي واستلام الحسن بن علي الخلافة بعد أبيه وقبل الصلح مع معاوية ليحقن دماء المسلمين على أن يعود الحكم شورى بين المسلمين بعد معاوية ، ثم مات الحسن بن علي ، وأصبح الحسين هو رمز الموالين لعلي وآل البيت – وبالمناسبة حب آل البيت فريضة – ولكن هناك فرق بين الحب واعتبارهم أئمة معصومين وأن هناك بعضاً يجعلهم هم أئمة الأمة وليس غيرهم كما يرى الشيعة ولكن معاوية قام بتوريث ابنه يزيد الملك والخلافة فكان هذا نكوصاً على الاتفاق مع الحسن الذي تم الصلح وحقن دماء المسلمين بموجبه ، فخرج الحسين ومعه ٧٠ من أهله إلى كربلاء ليطلب أن يعود الأمر شورى بين المسلمين ولم يخرج معه أحد من المسلمين غير أهله – وقتل ببشاعة في كربلاء مع أهله الأمر الذي أحدث صدمة كبرى لدى المسلمين ، لأنهم رأوا ظلماً فادحاً يوقعه جيش يزيد بالحسين وآل البيت الذين خرجوا معه ، ولأن المسلمين تخاذلوا عن نصرة الحسين رغم أنه كان على الصواب .

ولعل رد الفعل النفسي دفع في اتجاه تطرف الشيعة واستنباطهم أحكاماً دينية وهي وإن كانت موجودة من قبل في صورة بسيطة تحولت إلى عقائد وقواعد فبدلاً من أن يكون علي أفضل الصحابة أصبح هناك نص ديني يجعل الإمامة في علي وذريته بأمر من الله ومن يخالف ذلك فقد عصى الله ومن ثم أصبح أبو بكر وعمر وعثمان من العصاة وأنهم اغتصبوا ليس الحق السياسي لعلي بن أبي طالب ، بل الحق الديني وأصبح الإمام معروفاً من قبل كما تدعي الاثنا عشرية ، وأن الإمام معصوم ولكن الأمر لم يخل من جدل داخلي داخل الشيعة أنفسهم ، فبعد الحسين ابن علي جاء ابنه علي زين العابدين ، الذي قاد الشيعة في حياته وبعد موته كان هناك فريقان في الشيعة ، فريق يرى أن يخفف غلواء التشيع الديني متمثلاً في زيد بن علي زين العابدين ، الذي قال بأن علي أفضل الصحابة ، ولكن تجوز ولاية المفضول

أي تجوز ولاية أبو بكر وعمر وعثمان . وقد قام زيد بثورة على الخليفة الأموي هشام بن عبد الله ، إلا أنه قتل في تلك الثورة بالكوفة .

وفريق آخر تجمع حول محمد الباقر ، الذي يرى أن هناك نص ديني على إمامة علي ونسله ، وأن الأئمة اثنى عشر ولذلك يسمونهم بالشيعة الاثنا عشرية ، وأن أوصافهم موجودة في كتاب أملاه الرسول ﷺ على فاطمة ، وهكذا فنحن الآن أمام تشيع ديني متماسك .

وقد أحدث الزيدية عدداً من الثورات فيما بعد ، أما الشيعة الاثنا عشرية فقادهم محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق ، وكان من المفروض وفق عقائدهم أن يكون الإمام من بعد جعفر الصادق هو إسماعيل بن جعفر الصادق إلا أن إسماعيل مات في حياة ابنه جعفر الصادق ، فانقسم هؤلاء إلى فريقين ، فريق يرى أن إسماعيل هو إمام حتى ولو مات في حياة أبيه ، ومن ثم تكون الإمامة من بعده إلى ابنه وظهرت بذلك طائفة الإسماعيلية التي لا تزال موجودة حتى الآن والتي نجحت في إقامة دولة في مصر وشمال أفريقيا هي الدولة الفاطمية ثم نشأت فرقاً من الإسماعيلية أشد تطرفاً مثل الحشاشين وهكذا .

أما الفريق الثاني فيرى أن الإمامة للابن الثاني لجعفر ما دام ابنه الأكبر قد مات في حياة والده ، لأنه لا يصح أن يكون هناك إمامان يعيشان معاً في نفس الوقت ، ومن ثم فإن الإمام هو موسى الكاظم ولذلك تسمى الشيعة الإمامية أو الاثنا عشرية أو الموسوية نسبة إلى موسى الكاظم ، وتتابع الأئمة من هؤلاء الاثنا عشرية فكان الإمام علي الرضا ثم محمد الجواد ثم لعلي الهادي ثم للحسن العسكري وهناك أصبح الأئمة أحد عشر وحسب عقائد هؤلاء التي نشروها وبشروا بها فإن الإمام الثاني عشر الذي سيكون آخر الأئمة سيفتح الأرض كلها ويملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً – وهو المهدي المنتظر – الذي سينزل المسيح عليه السلام ليصلي خلفه ، وهكذا فإن الشيعة وصلوا إلى مأزق فلو ظهر الإمام الثاني عشر ولم يفعل

ذلك ، لكان مذهبهم باطل أصلاً وفرعاً ، وهكذا قاموا بالادعاء بأن الإمام الثاني عشر الذي هو ابن الحسن العسكري – محمد الحسن العسكري – قد دخل سرداباً في دار أبيه بمدينة « سامراء » وأنه اختفى ولم يمت حتى الآن وما زال موجود حياً يأكل ويشرب وأنه الإمام الغائب الذي سيخرج يوماً ليحقق ما بشرت به أخبارهم ومن ثم أصبح من عقائد الشيعة الاثنا عشرية مسألة المهدي المنتظر الغائب الذي سوف يعود .

ولما طالت غيبة الإمام رأى علماء الشيعة وخاصة الإمام الخوميني الذي قاد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ ، أنه يجوز في حالة غياب الإمام أن يقوم أحد علماء الشيعة الكبار بالنيابة عنه ، ومن ثم يجوز له قيادة الشيعة ، أي ما يسمى بولاية الفقيه التي تعتبر أهم أركان الفقه الشيعي المعاصر .

تحرير فلسطين

أهم قضية – بل أهم مشكلة تواجه العالم العربي والإسلامي – تواجه العرب والمسلمين هي قضية فلسطين ، فهل يمكن تحريرها ؟

لا تقلق أخي المسلم . نعم ببساطة شديدة يمكن تحريرها .

قد يقول قائل كيف يمكن تحريرها ، وإسرائيل أقوى دولة عسكرياً في المنطقة، بل أن الغرب جعل جيشها أقوى من كل الجيوش العربية مجتمعة ، وكذا فإن وراءها الجيش والاستخبارات الأمريكية والنفوذ في مجلس الأمن ، والفيتو وهلم جراً .

هذا كله صحيح ، ولكن من قال أصلاً أن تحرير فلسطين سوف يكون عن طريق القوة العسكرية .

الأمر ببساطة ، أننا لو دعونا كل اللاجئين الفلسطينيين ، وكل العرب وكل المسلمين وكل أحرار العالم ، للزحف سلماً على فلسطين من سوريا ولبنان والأردن ومصر ، وهب أنه تجمع عدة ملايين من اللاجئين الفلسطينيين ومثلهم من العرب ومثلهم من المسلمين وعدد من أحرار العالم ، وزحفوا إلى فلسطين سلماً ، فمن يستطيع أن يمنع ٥٠ مليون أو حتى عشرة ملايين من الوصول واجتياز الحدود ودخول فلسطين المحتلة سلماً ، هل يمكن أن تقتل القوات الإسرائيلية مليون مثلا، من وجهة نظري لا يمكن ، فالعالم رغم أن ضميره مطاط ، فإن المطاطية لا تصل إلى قتل الملايين الزاحفين سلماً ، هذا أمر فوق طاقة البشرية، ومن ثم فلو دخلت هذه الملايين إلى فلسطين سلماً لتحررت فلسطين فوراً .

والحقيقة إنني أدعو إلى هذه الفكرة منذ ثمانينيات القرن الماضي ، وكتبت في ذلك مقالات وكتب وحوارات تليفزيونية دون أن يستمع إلى أحد ، بل إن العجيب والغريب أن الذين كانوا يسخرون من الفكرة أو يسفهونها كانوا هم الزاعمين بأنهم يريدون تحرير فلسطين ، فالإيرانيون مثلاً الذين يزعمون أنهم يدعمون حزب الله وحماس والجهاد الفلسطيني ، أكثر الناس معارضة للفكرة ، لأنها تفسد عليهم سبوبة الزعم بأنهم يتصدرون الصفوف في مواجهة إسرائيل ، وكذلك الحركات الإسلامية والقومية والوطنية ، ويبدو أن سبوبة فلسطين كبيرة جداً ، لدرجة أنهم لا يريدون إلا طريقتهم التي فشلت منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن حتى تستمر السبوبة والحقيقة أن هذه الفكرة ليست فكرتي ، بل هي نتيجة التأمل في القرآن الكريم .

يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ .

إذن هذه السورة تتحدث عن المسحد الأقصى وما حوله أي عن القدس وما حولها أي فلسطين كلها .

وفي الآيات ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ .

الآيات تتكلم عن علو وإفساد لبني إسرائيل مرتين وهو ما لم يحدث في التاريخ حتى الآن ، إلا هذه المرة ، لأن العلو الأول الذي حدث في عهد نبي الله سليمان ، كان علواً فقط بدون إفساد ، لأن سليمان نبي معصوم ، وكانت بني إسرائيل ساعتها ليست فاسدة ولا كان ملك سليمان فساداً ، إذن نحن أمام أول حالة علو

وإفساد معاً لبني إسرائيل .

وهكـــذا فـــإن الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ أي جاسوا بمعنى مشوا وليس قـاتلوا أو هـذا هـو المعنى المباشر لكلمة جاسوا ، فلماذا نخرجها عن معناها المباشر والعباد الـذين سـيبعثهم الله ليجسـوا خـلال الـديار أولي بـأس شـديد ، أي صـابرين يتمسـكون بالصبر.

وحتى لو أخذنا بتفسيرات أخرى بمعنى أننا في حالـة الإفسـاد الثـاني ، فـالأمر سيكون كما دخلوه أول مرة أي جاسوا مرة أخرى ومشوا وهكذا فالحل بسيط هو الزحف بالملايين سلماً عـلى فلسـطين ، ولكـن أصـحاب السـبوبة لا يريـدون أن يستمعوا إلى هذه الفكرة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الإنسان الضبع

قصة قصيرة

هذا مصنع نموذجي ، إنه ينتج من إطارات الكاوتشوك أكثر مرة ونصف من أي مصنع كاوتشوك في العالم ، وذلك لأن الإدارة فيه تعتمد على العلم والعلم وحده ، وإذا كانت المادة تخضع للقوانين العلمية فقط فإن العامل هنا يخضع للقواعد العلمية وحدها ، لا مكان لدينا للعواطف أو الحب أو الكره ، بل للرياضة والمنشطات التي يتناولها العمال فيعملون أكثر بصورة آلية .

قال مدير المصنع السيد « أ » هذا وهو فخور أمام مجموعة من الصحفيين في ذكرى مرور عام على بدء الإنتاج في المصنع ثم أردف قائلاً: كما ترون الآلة والإنسان أصبحتا شيئاً واحداً ، بل إن العمال لدينا لا تعرف أسماءهم بل هم مجرد أرقام ، فإذا عمل في الوردية ألف عامل مثلاً فإن الإنتاج يكون ٢٠٠ إطار ، وهكذا فالمسألة كلها حسابات فقط .

سأل أحد الصحفيين سيادة المدير قائلاً : هل لديكم عمال لا يتجاوبون مع هذا النظام الآلي الدقيق ؟

قال المدير نعم هناك ولكننا نتخلص منهم شيئاً فشيئاً حتى يصبح العمل آلياً وحسابياً بنسبة ١٠٠ ٪ ، إن هذا يثبت أن طريق الحضارة طريق آلي وحسابي فقط ، فليس الإنسان إلا جزء من المادة وعلينا تنميطه شيئاً فشيئاً ليصبح مادة فيخضع لقوانين المادة ، ومن ثم يصبح العمل أكثر دقة وانضباطاً ويزيد الإنتاج وهذا يعود على العاملين بالمال أكثر ومن ثم يصبحون قادرين على اقتناء سيارات أو شرب

الخمر ومعاشرة النساء أكثر .

رد صحفي آخر وهل يسمح بالعلاقات الجنسية بين العامين؟

المدير نعم ولكن في أوقات الراحة ، لا مشكلة لدينا في العلاقات الجنسية – بل إننا نرى العلاقات الجنسية خارج إطار الأسرة أكثر ملائمة لنا لزيادة الإنتاج ، بل حتى لو حدثت علاقات مثلية جنسية بين رجل ورجل أو امرأة و امرأة فهذا يسرنا ولا يضيرنا أو على الأقل لا يعنينا ، إننا نريد أن نضع نموذجاً خاضعاً لقوانين الطبيعة فقط ، وهذا هو سر نجاح مصنعنا .

انتهى المؤتمر الصحفي وبدأت ساعات أخرى من العمل ووردية أخرى من العاملين ، إنهم يتمتعون بأجسام رياضية ، والرياضة في هذا المصنع جزء من النشاط المفيد ، وتناول العمال حبوباً منشطة يزيد في قدرتهم على المزيد من العمل والنشاط ، كأن النعمة بادية عليهم – قال العامل « ب » وهو مثلي الجنسية لآخر «ج» هل نلتقي اليوم بعد العمل؟ فأجابه الآخر: نعم سيحدث وسنقضي وقتاً ممتعاً، وربما نتفق في النهاية على أن نتزوج بعضنا البعض .

قال ب « ولكنك تتزوج ولك ابن من زوجتك » ، قال « ج » وما المانع أن تكون الأسرة مني ومنك ومن الزوجة والابن ، أليس هذا هو التطور الطبيعي للحضارة .

قال « ب » ولكن زوجتك بدورها لها صديقة أنثى فهل يتزوجان أيضاً .

قال « ج » لا مانع ولينضم الجميع في أسرة واحدة وهذا سوف يزيد الأبناء اقتراباً من النموذج المادي لحضارتنا التي لا تعترف بما يسمى الأخلاق ، والأخلاق مجرد خدعة من الضعفاء لابتزاز الأقوياء .

قال « ب » حسناً فلتعمل بجد ونشاط حتى تحصل على المزيد من المال ليتسنى لنا شراء الخمر والمخدرات ، قال « ج » لقد تناولت جرعتين من

المنشطات لأحقق إنتاجية أعلى هذا اليوم الذي سوف يكون ختامه علاقة حميمة بيننا ، قال « ب » لا تقل كلمة حميمة فهذه كلمة أسقطناها من القاموس فاستبدلها بكلمة علاقة أكثر لذة أو أكثر مادية لتكون لغتنا انعكاساً لثقافتنا .

في هذا الوقت بالتحديد جاء العامل إبراهيم الذي رفض أن يتنازل عن اسمه وطلب الدخول إلى وردية العمل – فقال له مسئول الوردية إنك تأخرت ربع ساعة وسيتم خصم نسبة من أجرك ، قال إبراهيم لا بأس . قال مسؤول الوردية: إذن تفضل بتناول حبة من المنشط حتى تكون أكثر قدرة على العمل ، رفض إبراهيم ذلك بقوة وقال: هذا لا يليق بي كإنسان ، قال مسؤول الوردية وهو يضحك ملأ شدقيه إنك تتعثر في حياتك وديونك تزيد ولا تنتج ما يكفي للحصول على المال لسداد إيجار مسكنك أو اقتناء سيارة مثل زملائك ، وفي آخر الأمر إنني أنصحك .

صمم إبراهيم على موقفه ودخل إلى العمل – كان إبراهيم يفكر في زوجته الحبيبة وكان يفكر في ابنه المعاق وكان يفكر أن عليه أن يصحب زوجته وابنه إلى أحد المسارح لرؤية مسرحية كما يفعل كل أسبوع .

انتهى يوم العمل ، وحصل إبراهيم على نصف الراتب الذي حصل عليه الآخرون ، وذهب فاشترى طعاماً وشراباً وقطعة من الشيكولاته لابنه وذهب مسروراً إلى المنزل .

أعدت زوجته الطعام وأخذ إبراهيم يحكي حكايات مسلية وأخلاقية لابنه سماعيل ، وبعد إعداد الطعام أكلا معاً وكانوا سعداء جداً ، ثم لبسوا ملابس السهرة وذهبوا إلى المسرح .

انتهت المسرحية وعادوا إلى المنزل ، وتناقش مع زوجته وابنه عن الجوانب الأخلاقية في المسرحية التي تدعو إلى الخير ورفض الشر ، ولكن الحديث انزلق إلى قضايا أخرى ، الزوجة قالت لزوجها أن أجر المنزل لم يدفع ، وهناك ابن أخيك

الذي يتصادف عيد ميلاده غداً ومن الصروري أن تذهب إلى بيت أخيك لمجاملته بهذه المناسبة .

قال إبراهيم اتركي الأمر لله ، فإننا ذاهبون في النهاية إلى الآخرة وسنجد نعيماً دائماً ، لأن كل تلك الأمور الدنيوية لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

قالت الزوجة: هذا صحيح تماماً ونحن سعداء رغم كل الظروف العصيبة .

***

صحا إبراهيم مبكراً وساعد ابنه على إعداد حقيبة المدرسة وحمله على كتفه واتجه إلى المدرسة ، كان سعيداً جداً أنه يساعد ابنه المشلول على التعليم ، وكاد الابن يشفق على أبيه من كثرة الأعباء ، ولكن الأب كان يخفف عنه ويقول أننا نقبل قضاء الله بكل سرور .

وصل الأب والابن إلى المدرسة ، وعرف أنه مطلوب لمقابلة مديرة المدرسة ، فذهب إليها وقال لها: السلام عليكم ، فلم ترد عليه وقالت: إنك تأخرت في دفع مصروفات المدرسة ولا بد أن تدفعها وإلا فلن نسمح لابنك بمواصلة التعليم لدينا يمكنك تعليمه في مكان آخر أو بنفسك .

عاد إبراهيم إلى المنزل محزوناً شيئاً ما ، وفهمت الزوجة ذلك وقالت له لابأس يمكنني أن أقوم بتعليم الولد بنفسي وتوفير مصاريف المدرسة .

عانقها إبراهيم وقبلها بحنان ، فهذه سيدة طيبة تقف إلى جوار زوجها وابنها ولم تتبرم أو تشكو قط .

ذهب إبراهيم إلى العمل متأخراً كعادته ، ورفض تناول المنشطات ودخل إلى العمل في الوردية ، قال لأحد العمال « ع » إنني ألاحظ أن عضلاتك تقوى يوما بعد يوم ، وأن أسنانك تزداد طولاً ، وأنك لم تعد قادر على مناقشة أية قضية أو تتذوق أي قصيدة شعر أو قطعة موسيقى .

ضحك العامل « ع » وقال ما فائدة هذه الأشياء ولكنني في المقابل أصبحت أمتلك سيارة وأنفق على لذاتي وأعيش حياتي بالطول والعرض .

قال إبراهيم ولكن هذا لا معنى له .

قال « ع »: تركت لك المسرح والموسيقى والشعر والأدب مقابل أنك تركت لي السيارة والمخدرات والخمر والنساء ، والرجال إذا أمكن .

في المساء ذهب إبراهيم إلى منزل أخيه وحضر مع زوجته وابنه عيد ميلاد ابن أخيه ، وأعطى لابن أخيه هدية عبارة عن اسطوانة عليها موسيقى لبتهوفن ، وفرح بها ابن الأخ فرحاً شديداً وشعر الجميع بالسعادة في ذلك الحفل .

عاد إبراهيم مع زوجته وابنه إلى المنزل ، ولكنه وجده مغلقاً وقد ألقيت قطع الآثاث خارج المنزل ، لأن صاحب المنزل قرر طردهم دون حتى أن ينذرهم أو يتحدث إليهم أو يعطيهم مهلة .

حمد إبراهيم الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وحمل مع زوجته بعض الآثاث وذهب إلى حديقة قريبة واتخذ من شجرة ظلاً له ووضع الآثاث وبعض الأقمشة لبناء خيمة بين الأشجار ولم يفقد تفاؤله .

قالت الأم ، لقد ذهبت واتفقت مع أحد المستشفيات على بيع كلية لأحد الذين يحتاجون إلى نقل كلية ، لكي نستطيع أن ننفق على حياتنا الصعبة ، قال إبراهيم ، سبقتك وفعلت الشيء نفسه .

حصل إبراهيم وزوجته على ثمن كليتين وعاش كل منهما بكلية واحدة وزاد هتمامهما بالابن المعاق ولم يفقدا صبرهما أو إيمانهما .

***

حدثت ظاهرة تحدثت عنها الصحافة في المدينة ، وهو أن الأطفال الذين

ولدوا حديثاً كانت أسنانهم طويلة وتشبه وجوههم وجوه الضباع ، وعلـق إبـراهيم على ذلك أنها بسبب المنشطات التي يتناولها العمال وأن علينا أن نرحل بسرعة من تلك المدينة ، حتى لا تفترسنا الضباع ، رحل إبراهيم وزوجته وابنه عن المدينـة ، التي تحول كل أفرادها إلى ضباع يأكل بعضهم بعضاً وينهش بعضـهم لحـم بعـض ولم يتبق في تلك المدينة إنسان واحد .

(٢)

الإيمان والإرادة
أقوى من الطائرة والدبابة



الذي لا يكتفي بمراقبة السطح الخارجي للأحداث – خاصة بما يتصل بخبرات شعوبنا في مواجهة التحديات الاستعمارية وآخرها أمريكا وإسرائيل – يدرك على الفور أننا نمتلك القدرة على المواجهة والصمود وتفشيل العدو ومنعه من تحقيق أهدافه بوسائل غير تقليدية اكتشفها المجاهدون على مدى الصراع ، وأن قوة أمريكا وإسرائيل ليست قدراً ، بل هي قوة يمكن مواجهتها وهزيمتها ، ولو بمنعها على الأقل من تحقيق أهدافها وأننا إن كنا نتألم من جراء ممارسات تلك القوى ضدنا فإنهم يتألمون مثلما نتألم ، أي أننا قادرون على إنزال الألم بهم أيضاً ، ولكننا نرجو رضا الله تعالى والجنة وهم لا يرجون شيئاً ، وهذا عامل قوة لنا ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

حقيقة إمكانية مواجهة القوى الظالمة مهما كانت قوتها وجبروتها ، وأن الإنسان أقوى من التكنولوجيا هي حقيقة يؤكدها الإيمان بمدد الله تعالى ، الذي يأتي للمؤمنين المجاهدين الصادقين ، الذين بذلوا غاية الجهد ، ومن ثم فإن القعود عن الجهاد والمقاومة بدعوى عدم تكافؤ القوى هي هجمة مرفوضة شرعياً ومرفوضة على مستوى دراسة تاريخ وحوادث الصراع ، بل أن تلك الحجة ليست إلا وسيلة للهزيمة من قبل بدء المعركة وتوفير جهد الأعداء من ثم ، وهي لا تحقق قطعاً حقن دمائنا بل العكس هو الصحيح، فالاستسلام عادة ما يؤدي إلى مذابح «مذبحة صابرا وشاتيلا مثلاً» وكل المذابح التي تمت من قبل ومن بعد .

من الناحية القرآنية يقول الله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ . إنها نفس الحجج الخوف من مواجهة الأعداء وانتقامهم بدعوى عدم تكافؤ القوى .

***

الخبرة التاريخية

في مراحل الصراع مع العدو الصهيوني والأمريكي – ومن قبل مراحل الصراع مع الاستعمار الغربي ، أي منذ أن بدأت عناصر القوة تكون في صالح أعدائنا ، فإن الخبرات المتراكمة تقول أن مواجهة العدو بجيوش نظامية أو بدول وحكومات فشلت إلى حد كبير ، وأن الطريقة الوحيدة التي تم بها النجاح في المواجهة كانت الحرب الشعبية ، والأمثلة كثيرة متواترة متكررة ، مع أولى الحملات الاستعمارية مثلاً « الحملة الفرنسية ١٧٩٨ » نجحت المقاومة الشعبية التي نظمها الأهالي بقيادة علماء الأزهر في إخراج الحملة وهزيمتها حين فشل المماليك « الحكومة والدولة » في ذلك .

الأمر نفسه تكرر في حملة فريزر على مصر ١٨٠٧ ، في التاريخ الحديث مثلاً فشلت الدول العربية متفرقة ومجتمعة في التصدي لإسرائيل ، ولكن المقاومة الشعبية في مدينة السويس في مصر ١٩٧٣ نجحت في ذلك وهزمت القوات الصهيونية التي حاولت احتلال المدينة ، في الحملة العسكرية الأمريكية على العراق مثلاً ٢٠٠٣ فشلت حكومة العراق بجيشها الكبير وحزبها المنظم وقيادتها الصارمة في التصدي للعدوان ، واحتل الأمريكيون العراق ، ولكن المقاومة الشعبية اندلعت سريعاً ، ونجحت في إنزال أكبر الخسائر بجيش الاحتلال ، بل إنها صمدت رغم الظروف السيئة ، وخيانة أحزاب وطوائف وزعماء وقادة ، صمدت للحملات العسكرية المتكررة طوال تلك السنوات منذ عام ٢٠٠٣.

نفس الأمر حدث في أفغانستان ، فشلت الحكومة والدولة بقيادة طالبان في مواجهة الاحتلال الأمريكي ثم نجحت كحركة شعبية ، وبعد أربع سنوات على الاحتلال الذي تم عام ٢٠٠١ ، أي تحديداً منذ نهاية عام ٢٠٠٥ تزايدت قوة المقاومة التابعة لطالبان ، أي أن طالبان ذاتها نجحت كحركة فيما فشلت فيه كحكومة .

الأمر نفسه تكرر مع حماس(*) التي صمدت لكل أنواع ومحاولات التصفية ، ولا تزال تنفذ عملياتها وتطلق صواريخها ضد إسرائيل .

نفس المنطق تم في لبنان ، فلم يستطع إخراج الاحتلال الصهيوني من الجنوب إلا المقاومة الإسلامية عام ٢٠٠٠ وفي عام ٢٠٠٦ حين نجحت إسرائيل في الحصول على ضوء أخضر أمريكي أوروبي دولي بل وعربي وجزء منه لبناني لتصفية حزب الله ونزع سلاحه وتنفيذ القرار ١٥٥٩ فإنها قد فشلت في ذلك .

لا يرجع ذلك بالطبع إلى قلة أو ضعف الإمكانيات لدى الجيش الصهيوني أو الجيش الأمريكي ، بل يرجع إلى أن تلك الجيوش قد تنجح مع جيوش مثلها هي بالضرورة أضعف منها ، أو تنجح في مواجهة دول وحكومات ولكنها تفشل بالضرورة في مواجهة حركات ومجتمعات . وهكذا فإن الخبرة الكبرى تقول أنه من الممكن هزيمة الأعداء بحرب المجتمعات وليس الجيوش والدول ، وبحرب المنظمات الصغيرة ، وبحرب الشعب ، وأن الإيمان والإرادة أقوى من الطائرة والدبابة . وهذا من رحمة الله طبعاً بنا وبالبشر جميعاً ، لأن من سننه تعالى أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وأن المجتمعات أقوى من جيوش الظالمين .

الإنسان أقوى من التكنولوجيا

مسألة أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، هذه حقيقة دللت عليها آلاف الحوادث ، فما معنى أنه في ظروف صعبة للغاية تنشأ حركات مقاومة مثل حماس والجهاد ، لا تملك إلا إمكانيات بسيطة ، وأنها تستطيع أن تقوم بعمليات استشهادية متكررة في الزمان والمكان ، لمدة طويلة وفي كل مكان من أرض

(*) نتحدث عن حماس التي قاومت عندما كانت خارج السلطة أما بعد أن أصبحت في السلطة فإنها فقدت قدرتها على المقاومة وأصبحت مجرد حائط صد لصالح إسرائيل بل غيرت كذلك ميثاقها لترضي أمريكا وإسرائيل ، وفوق ذلك فشلت في تحقيق مطالب أهل غزة.

فلسطين التاريخية ، في القدس وتل أبيب وحيفا على الساحل ، في الشمال والجنوب في غزة والضفة ، وبديهي أن ذلك اقتضى اختراق تحصينات وتجهيزات واستخبارات صهيونية هي الأقوى من نوعها ، ما معنى أن تفشل إسرائيل في منع تلك العمليات رغم جيوش العملاء ، رغم الاستخبارات رغم الميزانيات الباهظة، رغم الجيش القوي والتحصينات الضخمة ، رغم الأقمار الصناعية ، ورغم الدعم العسكري والاستخباراتي الأمريكي ، وأن تصل تلك العمليات في كل الظروف الصعبة والسهلة إلى داخل إسرائيل في القلب وعلى الساحل وفي الشمال والجنوب ، معناه ببساطة أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا – وهذا من رحمة الله .

ثم معنى أن تستمر حماس والجهاد رغم عشرات الحملات العدوانية واستخدام كل أنواع الطائرات والدبابات والمدفعية والمشاة ، واقتحام المدن ، وهدم البيوت والجسور والمرافق والضغط على المدنيين . . . . الخ ما معنى استمرار قصف إسرائيل بصواريخ بعد ذلك كله . . . معناه أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، والصاروخ نفسه يؤكد ذلك فهو صاروخ بسيط صغير لا تستطيع شبكة الصواريخ الإسرائيلية « باتريوت وحيتس » والتي تكلفت المليارات من الدولارات أن تتصدى له ، ربما لأنه صغير ! ! ويحقق نوع من الخوف وعدم الأمان بالنسبة للإسرائيلي وهذا ينسف فكرة الصهيونية ذاتها .

الأمر نفسه ينطبق على سلاح الكاتيوشا ، وكل من الكاتيوشا والقسام وجراد سلاح بسيط يمكن تصنيعه بأبسط الوسائل والخبرات ، بل يمكن لطلاب العلوم والهندسة تطويره وزيادة مداه ، ولا يمكن كشفه أو التصدي له ، وسلاح الكاتيوشا وصواريخ حزب الله مثلاً وصلت إلى معظم المدن الإسرائيلية وحققت نوعاً من الردع وأسقطت قتلى وجرحى .

إنه الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وهناك طريقة ما يستطيع بها الإنسان مهما كان ضعفه أن يواجه أعتى القوى ، إنها حرب النمل مع الفيل ! ؟ .

ليس هذا فحسب . . . فيمكننا أن نرصد عدداً من الحوادث دللت أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، حتى في مواجهة الجيوش الأمريكية الصهيونية مباشرة .

- عملية نسف مقر قيادة القوات الأمريكية « المارينز » في بيروت عام ١٩٨٤ وقتل وجرح مئات الجنود ، إنها عملية استشهادية نفذها فرد في مواجهة جيش محصن وقد سئل وقتئذ الرئيس الأمريكي دونالد ريجان في الكونجرس كيف يمكن حدوث ذلك ؟ أين التحصينات ؟ أين الاستخبارات فأفاد ، أن كل التحصينات في العالم قائمة على فكرة خوف المهاجم من الموت ، فإذا انتفى هذا الخوف فإنه لا حل هناك . . . صدق وهو كذوب .

- عمليات نسف مقر الحاكم الإسرائيلي في صور عام ١٩٨٥ وغيرها من العمليات المماثلة .

- عملية أنصارية عام ١٩٩٨ ، والتي جاء فيها أقوى وحدة إسرائيلية على الإطلاق « وحدة خاصة يتكلف الجندي فيها ٥ مليون دولار » عن طريق الإبرار الجوي ، فوجدت رجال المقاومة بانتظارها ليبيدوا كل القوة الإسرائيلية ، وتضطر إسرائيل إلى إلغاء العملية . . . كيف علمت المقاومة بمكان وزمان العملية وكيف نجح رجال المقاومة في إبادة وحدة إسرائيلية من أفضل وحداتها العسكرية ؟ ! ! . . . إنه الإنسان أقوى من التكنولوجيا .

- في عملية الوهم المتبدد « يونيو ٢٠٠٦ » حيث حفر المجاهدون خندقاً بطول ٤٠٠ متر تحت الجدار العازل دون أن يحس بذلك العدو ولا استخباراته ، ووصلوا إلى موقع عسكري إسرائيلي في « كرم شالوم » وقتلوا وأسروا ورجعوا . . . ما معنى ذلك معناه أن الإيمان والإرادة أقوى من الجيش الصهيوني .

- عملية « الوعد الصادق » التي تم فيها الهجوم على وحدة صهيونية في جنوب لبنان « زرعيرت » في يوليو ٢٠٠٦ وتم قتل ٩ جنود وأسر جنديين ، وجرح

العشرات . . .

- صمود المقاومة اللبنانية ٢٠٠٦.
- صمود غزة ٢٠٠٩.
- صمود غزة ٢٠١٢ .
- صمود غزة ٢٠١٤ .
- معنى ذلك أنه حتى الجيش الصهيوني بات من الممكن إنزال الضربات به على يد المقاومة ، معناه أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وأن هناك مدد الله دائماً يأتي للمجاهدين الصادقين بعد بذل كل الجهد .

وفي الحقيقة فإن الوقائع من هذا النوع أكثر من أن تحصى والحمد لله رب العالمين .

(٣)

دراسة التاريخ فريضة شرعية وضرورة استراتيجية



(١)

دراسة التاريخ فريضة إسلامية، فرضها الله سبحانه على عباده المسلمين بنصوص قرآنية قاطعة. ودراسة التاريخ هي الأساس الصلب لفهم المستقبل. والحركة التاريخية تشغل جانبا كبيرا من التوجيه القرآني سواء ما كان منها خاصا بشرح القوانين التي تهيمن على حركة الكون، أو التي تحكم نهضة الأمم واندحارها، أو سردا تاريخيا للرسالات التي أرسلها الله لهداية البشرية من الظلمات إلى النور ومن الضلال ومن العذاب إلى الرحمة، أو كان بيانا لخلق الإنسان والأمانة التي كلف بها وما يلزمه من سياسة في مواجهة الأعداء والانحرافات.

والحركة التاريخية تشغل مساحة واسعة في القرآن الكريم، بل إن القرآن الكريم ينص صراحة في عشرات الآيات على الدعوة الصريحة لدراسة التاريخ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾[(٢)]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[(٣)].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[(٤)]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[(٥)].

(١) الأنعام آية (١١) مكية.

(٢) يوسف آية (١٠٩) مكية.

(٣) الحج آية (٤٦) مدنية.

(٤) آل عمران آية (١٣٧) مدنية.

(٥) العنكبوت آية (٢٠) مكية.

والآيات السابقة ـ دعوة مباشرة لدراسة التاريخ ـ بمعناه الشامل، وهذا معنى دراسة كل العلوم التي تخدم التاريخ. وهذه الآيات ليست إلا نموذجا لعشرات الآيات التي تتضمن الدعوة نفسها[1].

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا أن تلك الآيات التي تقرر وجوب دراسة التاريخ فيها المكي والمدني إن كان معظمها مكيا.

وهذا يعني أن دراسة التاريخ مسألة هامة في المجتمع المسلم سواء كان في حالة دولة أو في حالة ما قبل بناء الدولة ـ وإن كان أكثر أهمية في حالة ما قبل بناء الدولة؛ لأن استيعاب حركة التاريخ عملية لازمة لبناء الطليعة المؤمنة التي تضطلع بالإعداد لإقامة المجتمع المسلم[2].

* * *

(٢)

معرفة السنن ودراسة العبر هي إذن فريضة إسلامية، والعلم بكل فروعه فريضة إسلامية. وعلى رأس العلوم يأتي علم (التاريخ) كفريضة أهم، وعلم التاريخ في القرآن هو علم مرتبط بحركة الأمم والشعوب وليس مقصورا على دراسة سير

---

(١) على سبيل المثال لا الحصر:

الآية ٩ من سورة الروم مكية

الآية ٤٤ من سورة فاطر مكية

الآية ٢١ من سورة غافر مكية

الآية ٨٢ من سورة غافر مكية

الآية ١٠ من سورة محمد مدنية

الآية ٣٦ من سورة النحل مكية

الآية ٦٩ من سورة النمل مكية

الآية ٤٢ من سورة الروم مكية

(٢) يلاحظ أن الآيات السابقة كان منها ١٠ آيات مكية، وثلاث آيات مدنية.

الزعماء مثلا. كما أنه من الشمول والاتساق بحيث يغطي الدلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية لحركة الشعوب: ارتفاعها وسقوطها. ومثل على هذا أن الأنبياء والرسل ـ الذين حملوا رسالة الله سبحانه ـ كان كل منهم يركز على أسباب الفساد الشائع في مجتمعه مع عدم إغفال الجوانب الأخرى؛ فمن الأنبياء من ركز على ضرب الجمود والتقليد واتباع آثار الآباء والأجداد بلا تفكير. ومن الأنبياء من ركز على ضرب الفساد الاقتصادي والظلم الاجتماعي مثل شعيب. ومن الأنبياء من جاء ليقود المستضعفين ليخرجوا من تحت نير الظلم والعبودية. وبديهي أن الرسالة اكتملت بالرسول الخاتم عليه صلوات ربي وسلامه. واكتمل الدين برسالة محمد ﷺ واشتمل الإسلام على كل النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية التي تكفل تحقيق مجتمع بشري نظيف وعادل وبناء.

وانطلاقا من كل هذا فإن دراسة التاريخ المعاصر هي فريضة بالتالي على المسلمين عمومًا، وعلى طليعتهم خصوصا.

وإذا قلنا أن العالم الآن بانتظار فجر العالمية الإسلامية الثانية، لإقامة عالم بلا ظلم ولا أحزان، فإن المهمة الضخمة التي تحملها طليعة الأمة الإسلامية في هذا الإطار تستدعي أكبر الاهتمام وأشده بالتاريخ المعاصر خصوصا، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لإنجاز انتصارها المنتظر وعالميتها الموعودة بإذن الله تعالى [1].

(١) في الحقيقة، فإن الحركة الإسلامية في مصر حتى الآن ـ من وجهة نظرنا ـ لم تقدم دراسة علمية متكاملة في التاريخ عمومًا والتاريخ المعاصر خصوصا، وكان اهتمامها بالتاريخ متواضعًا بالقياس باهتمامها بالقضايا الأخرى، ولعل هذا هو السبب في تأخر انتصارها حتى الآن بالإضافة إلى أسباب أخرى.

وفي الوقت نفسه فإن هذا البحث لا ندعي أنه سيكون متكاملا، أو شاملا ولكنه مجرد محاولة بسيطة ومتواضعة تحتاج إلى إضافات ودراسات أخرى من ذوي التخصص، ويكفي هذا البحث أن يكون مجرد محاولة صغيرة على الطريق بل هو في حقيقته ليس إلا مجرد دعوة للمتخصصين والأكاديميين القادرين إلى التصدي لكتابة تاريخ مصر المعاصر الذي شوهه العلمانيون.

(٣)

يظلل وجه التاريخ منذ لحظاته الأولى ذلك الصراع المستمر، والذي لم يتوقف لحظة بين القوى الربانية من جانب والقوى الشيطانية من جانب آخر، مما تمتلكه كل قوة منهما من خصائص خاصة وأدوات وأساليب في الصراع خاصة بها أيضا، ولكن ضمن سنن الله سبحانه وتعالى التي لا تستطيع أي قوة منها أن تتجاوزها، فالقوى الربانية هي قوة الجماهير المسلمة بقيادة طليعتها وهي قوة تعمل على:

١) ربط مصير الإنسانية بأيدي كل الجماهير - أي إنها جماهيرية تعمل على الجماهير.

٢) تحرير البشر كافة من الخوف والجهل والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والتخلف القبلي.

٣) قوة غير سلطوية، بمعنى أنه لا إكراه لديها في أي شيء، بل هي تعتمد في التفاف الجماهير حولها على تحرير تلك الجماهير من الاستبداد السياسي والتخلف القبلي والاجتماعي والظلم الاقتصادي، ثم تترك للجماهير حقها في اختيار اقتناعاتها الاجتماعية والسياسية والعقائدية، وبديهي أن الجماهير تختار الإسلام، لأن هذا يوافق فطرتها، ولأن تصميم الكون والحياة والعقل البشري يقود إلى هذا تماما.

٤) قوة تعمل على إزالة كل أشكال التسلط من على وجه الأرض لتحرير كل البشر « مفهوم الجهاد في الإسلام ».

والقوى الشيطانية قوى غير جماهيرية تعزل الجماهير باستمرار عن الوعي والعلم والمشاركة في بناء حياتها، بل تمارس عليها استبدادًا سياسيا، بمعنى أنها تصادر حرياتها وحقها في الاختيار، فهي تفكر لها، ثم هي تربطها بالقيود القبلية والاجتماعية ولا تترك لها فرصة للاختيار الحر، وتقمعها اقتصاديا بمعنى أنها

تحول بوسائلها الشيطانية دون تلبية حاجاتها الأساسية المشروعة.

أي أن تمارس فئة من البشر التسلط والتحكم في الجماهير مستخدمة في ذلك الإعلام والشرطة وأجهزة التضليل والقمع المختلفة.

وبالتالي فإن أي نجاح في انتزاع حق من حقوق الجماهير في الحرية السياسية ورفع المعاناة الاقتصادية وتسليح الجماهير بالوعي هو في النهاية لصالح القوة الربانية ضد القوى الشيطانية، والعكس دائما صحيح.

ولقد حمل لواء القوى الربانية المستضعفون بقيادة الأنبياء، وانتهى هذا اللواء إلى محمد بن عبد الله ﷺ وكان ظرفا تاريخيا فذا حققت القوة الربانية أثناءه انتصارا ساحقا على القوى الشيطانية وبدأت الجماهير تمارس حقها في العلم والوعي والحرية وبناء المجتمع اللا سلطوي واللا طبقي.

ولكن القوى الشيطانية ـ بعد أن هزمت أمام الرسالة المحمدية ـ لم تستسلم تماما. وبدأت تطل برأسها من داخل المجتمع الإسلامي ذاته على مستويين: المستوى الأول: هو إزاحة القيادات الرسالية عن موقع القيادة، والمستوى الثاني: هو ضرب النظرية السياسية الإسلامية وتزييف الإسلام الرباني الصحيح لصالح إسلام أسري وعشائري وطبقي.

وبدأت حركات التمرد عقب وفاة الرسول ﷺ وحركات الردة، ولكنها وئدت بفضل التصدي السريع والقوي لها على يد الصديق أبي بكر رضي الله عنه ومن بعده من الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله.

إلا أن حركات التمرد أخذت شكلا آخر ضد الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ لإزاحته ومن معه من طليعة مؤمنة باتجاه إقامة حكم انتهازي يصادر المفاهيم الإسلامية الصحيحة ويزيفها لصالحه ولصالح أسرته.

واستمر ضرب المفاهيم الإسلامية الصحيحة بلا هوادة، وبدا للحظة أن

الطليعة المؤمنة التي انهزمت وأزيحت عن قيادة الأمة لم تعد قادرة على العمل، وأن هناك خطرًا يوشك أن يجتاح المفاهيم الإسلامية الصحيحة أيضًا عن طريق بث العصبية القبلية وتزييف الإسلام وتفسيره تفسيرا طبقيا وعشاريا لصالح المستكبرين، لولا أن الإمام الحسين ـ رضي الله عنه ـ قد حفر بدمه الذكي رافدا عميقا لاستمرار تدفق المفاهيم الإسلامية الصحيحة وحركة الجماهير بقيادة طليعتها المؤمنة في مواجهة الاستكبار.

ولقد نجح الحسين عليه السلام في أن يفجر في لحظة تاريخية فذة وعي جزء من الأمة، ولولا ذلك لانتهى الإسلام، لا قدر الله.

وبرغم أن الإمام الحسين لم ينجح في إزاحة الاستكبار عن مواقع القيادة فلقد نجح في وقف عملية التزييف ولو على الأقل لدى جزء من الأمة كانت هي الرافد الذي استمر قويا في مواجهة كل محاولات التزييف.

وهكذا تبدأ حقبة ذات طبيعة خاصة في الصراع، تتمثل في جماهير مؤمنة بقيادة طليعة مؤمنة في مواجهة حركة استكبار في موقع القيادة داخل الأمة، وفي مواجهة قوى الكفر الخارجية. ولا يعني هذا أن ليس ثمة تناقض بين قوى الكفر الخارجية والقيادة الانتهازية للأمة الإسلامية على كل حال. فإنه بحسب قدرة الطليعة المؤمنة عن القيادة. فهذه الفتوحات الإسلامية التي استمرت برغم إزاحة الطليعة المؤمنة عن القيادة. فهذه الفتوحات ليست إلا استمرارا للدفعة القوية والمبدعة لحركة المسلمين بقيادة الرسول ﷺ والتي ما كان لها إلا أن تمتد، وهي أيضا أداة لتنفيس الضغط النضالي للقوى الربانية على القيادة الانتهازية.

والحقيقة أن عموم الأمة قد حافظت ـ برغم القيادة الانتهازية ـ على مجموعة من القيم والسلوك كانت من الأهمية بمكان في استمرار حيوية الأمة. كانت الرسالة المحمدية قد زرعت في وجدان الأمة مبادئ:

١) الوحدة.

٢) الحرية

٣) الجهاد.

وتصدى العلماء الشرفاء لإذكاء نيران تلك المبادئ في النفوس وتأصيلها واستخراج أحكامها، برغم مجهود علماء السلاطين، وفي الواقع فإن رايتي الوحدة والجهاد لم تسقطا لا على المستوى النظري ولا على المستوى العملي، بل إن علماء السلاطين لم يحاولوا أصلا إسقاط هذين المبدأين، ولكن تم استخدامهما دائما لخدمة الأمراء بطريقة لم تكن ، في معظم الأحيان ـ تتصادم مع مصلحة الأمة.

أي أن وحدة المسلمين باتت حقيقة واقعة على المستوى الوجداني وعلى المستوى العملي ـ فضلا عن المستوى التشريعي ـ أما قضية الحرية ـ أو تبلور النظرية السياسية الإسلامية ـ فإنها لم تحظ بهذا المصير ذاته، إذ أنها تعرضت لهجمات مستمرة من جانب علماء السلاطين، ومن جانب فقهاء الحكومات المختلفة، كما أن الشرطة وأجهزة القمع مارست دورها في ضرب ومطاردة العلماء الشرفاء، والطلائع الرواد الذين حاولوا دائما أن يحافظوا على نقاء مبدأ الحرية في مواجهة الحكام.

وإذا كان التراث الإسلامي إبان عصور ما قبل الحملة الصليبية واضحا في انحيازه بطريقة الإجماع إلى مبدأي: وحدة المسلمين، وضرورة الجهاد، فإن الكثير من الجدل قد دار حول حقوق الرعية، وحقوق الحكام، وشكل الحكم وغيرها من القضايا.

على أي حال أصبحت النفسية الإسلامية، أو الشخصية الإسلامية مرتبطة أشد الارتباط بمبدأي الوحدة والجهاد، وتشكل الوجدان الحضاري للأمة من هذين المبدأين، وارتبط الإبداع الحضاري الإسلامي بهما، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا: أن المسلم أصبح يبدع في حالة الوحدة والغزو وينحط حضاريا في حالة التفسخ

والقعود عن الجهاد.

وإذا كانت الدفعة الإيمانية الأولى ـ التي نفخها الرسول الكريم في وجدان الأمة ـ قد اتسعت لتحقق نجاح المسلمين حتى تحت ظل القيادة الانتهازية في فتح « العالم القديم »[1]. في معظمه وخضوعه للمسلمين، بل وظهور حضارة فذة على كل المستويات، حضارة استطاعت أن تحقق تقدما علميا واجتماعيا مذهلا لدرجة أن المسلمين على سبيل المثال أسسوا المبادئ العلمية التي قامت عليها كالحضارة العلمية والمنجزات البشرية فيما بعد، ويلاحظ في هذا الصدد أن تلك الحضارة كانت ـ وفقا للوجدان الإسلامي ـ حضارة الإنسان وليست حضارة الآلة كما حدث في حالة الحضارة الأوروبية، كما أن كل منجزاتها كانت لصالح الإنسان وليس العكس، ومثال واحد في هذا الصدد يعطينا دلالة قوية على ما نقول، فإن العلماء المسلمين كانوا قادرين إبان العصر العباسي مثلا على تحقيق الانشطار النووي. إلا أنهم لم يفعلوا ذلك لأن الإنسان لم يكن بحاجة إلى ذلك الانشطار، وإذا كان الانشطار النووي يعد أهم منجزات الحضارة الغربية اليوم ـ فإنه جاء عبئا على الإنسان وماردا بلا ضمير خرج من قمقمه ليكون قنبلة موقوتة فوق رأس عالمنا المعاصر[2].



في أواخر العصر العباسي كانت روح الوحدة قد ضعفت على المستوى الواقعي برغم تأججها عل المستوى الوجداني، وكانت قوى الكفر الخارجية قد بدأت تفيق من الضربة التي نزلت بها، وبدأت تلملم شعثها، وراح كبار الشياطين

(١) العالم القديم أو المعروف في العصور الوسطى هو العالم الذي يضم آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث أن الأمريكتين واستراليا لم يكن قد تم اكتشافهما بعد.

(٢) من بحث للأستاذ فيصل شهوان عن العلماء المسلمين ويرى الأستاذ فيصل شهوان أن العلماء في العصر الأول ـ مثل جابر بن حيان ـ استطاعوا أن يحضروا الأحماض المركزة ولو ساروا في طريقهم لاستطاعوا أن يصنعوا القنبلة الذرية ولكن الروح الإسلامية البناءة ما كانت لتسمح بهذا.

ينفخون فيها روح الحروب الصليبية [1]. وكانت النتيجة المباشرة لحالة التفسخ التي وقعت فيها الأمة الإسلامية أن تعرضت أجزاء العالم الإسلامي لحملات مستمرة من أووربا، وبعدها بقليل بجحافل التتار. غلا أن روح الجهاد التي لم تكن قد خفتت بعد. استطاعت أن تلفظ الاجتياح العسكري الصليبي. وأن تستوعب الجحافل التتارية. وأن تخرج منتصرة. وفي هذا الصدد لا بد أن نسجل هنا ذلك الدور الفذ الذي لعبه العلماء المجاهدون في إلهاب حماس الجماهير، وتعبئتها، والضغط على الحكام للقيام بأعباء الجهاد والتصدي [2].

ويشاء الله سبحانه أن يدفع إلى الأمة الإسلامية بقوة شابة صاعدة ممثلة في الدولة الإسلامية العثمانية ـ التي رفعت راية الوحدة والجهاد ـ فوحدت العالم الإسلامي من جديد، ودفعت الحدود الإسلامية باتجاه الاتساع في كل مكان، ولكن ما كان لهذه الدولة أن تستمر حيث إنها فقدت شرطا أساسيا من شروط الاستمرار وهو أنها استبدلت بقوة الجماهير المؤمنة المجاهدة نظاما عسكريا نظاميا، كان لا بد أن يتلاشى أو يسقط مهما كانت قوته.

كما أنها لم تمثل النظرية السياسية الإسلامية تمثيلا صحيحا، فغيبت الجماهير عن أداء دورها، وبديهي أنه مهما كانت قوة الدفع فإن الضمان النهائي والوحيد لاستمرار انتصار الأمة الإسلامية هو عدم عزل الجماهير عن أداء دورها، فالجماهير المؤمنة الواعية هي الضمان الوحيد لاستمرار رسالة الإسلام التحريرية، وهي الضمان ضد الانهيار والضغط على بنيان الأمة سواء من الداخل أو من الخارج.

وبالطبع فإن القوى الشيطانية قد وعت درس الحملات الصليبية جيدا وأدركت أنه لن يكفي ضرب الأداة العسكرية للأمة الإسلامية لإسقاطها، ولكن

(١) مثل الأب أربان الثاني.

(٢) مثل العز بن عبد السلام ـ وابن تيمية.

لا بد من ضرب الجماهير المؤمنة وطليعتها من خلال تدمير هويتها الإسلامية وتزييف وعيها وإخراج تلك القوة الاحتياطية الهائلة من الساحة تماما، وإلا فإنها ستظهر من وقت لآخر من تحت الرماد كنار عملاقة تحرق في طريقها ما يرجفون.

فكانت الحقبة الاستعمارية التي ركزت على هدفين:

١) محاصرة العالم الإسلامي (الكشوف الجغرافية) وضرب أداته العسكرية.

٢) عملية غزو ثقافي وحضاري شامل وغسيل مخ مستمر لتغييب وتدمير القوى الاحتياطية الكامنة (قوة الجماهير المسلمة وقيادتها الطليعية) وذلك عبر:

أ) تشجيع إقامة حكومات غير جماهيرية لا تسمح للجماهير بالمشاركة في أداء مهمات الحكم والحياة والجهاد، وذلك عبر خلق تناقضات طبقية واجتماعية، فتارة تسمح للبرجوازية (كطبقة) بالصعود إلى السلطة وتكريس حجب الجماهير عن أداء دورها « المرحلة الليبرالية »، أو غير خلق فئة «العسكرتاريا» بالتحالف مع قطاعات صغيرة من الطبقة المتوسطة وتحقيق تغييرات اجتماعية جزئية « دون مشاركة من الجماهير » ثم يتم مصادرة تلك المكاسب مرة أخرى في مقابل الضرب المستمر لقواعد الحركة الإسلامية وجماهيرها وقيادتها.

ب) خلق فئة من الرأسمالية الطفيلية « الوكلاء » المرتبطة بمصالح الغرب، وفئة من المثقفين المشوهين الذين يزاولون عملية غسيل المخ المستمر وقد تم ضرب القوى الطليعية الإسلامية عبر عدة مراحل:

- إسقاط الخلافة الإسلامية وضرب ما تبقى من النظرية السياسية الإسلامية.

- زرع كيان يهودي عنصري في قلب الأمة يحول دون ظهور تلك الطليعة مرة أخرى ويشكل ذراعا فولاذية لضرب تلك الطليعة، بل وضرب حتى مجرد

احتمالاتها الجنينية في رحم الأمة.

***

(٤)

سنحاول هنا أن نتوسع قليلا في شرح طبيعة المعسكرين المتضادين: المعسكر الإسلامي « القوى الربانية »، والمعسكر الكافر « القوى الشيطانية »، وهذا لأسباب كثيرة: لعل أهمها أن نفهم مهمات وأهداف ووسائل عمل كل معسكر، ليتسنى لنا ـ بالتالي ـ أخذ الموقف الصحيح تجاه كل تكتيك شيطاني، ولتتسنى لنا أيضا معرفة أخطاء الحركة الإسلامية، وبالتالي محاولة بناء رواية صحيحة من أجل تحقيق الانتصار الإسلامي المرتقب.

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق الكون، وجعل الإنسان خليفة في الأرض فإنه سبحانه قد صمم الكون بشكل متمل الحكمة، وملبيا لحاجات الإنسان، بل أن الله تعالى قد سخر الكون لخدمة الإنسان من ناحية. وليكون بتصميمه الفذ هاديا إلى الله ببساطة شديدة في كل صغيرة وكبيرة، أي أن كل ما في هذا الكون يقود إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة. كما أنه في المقابل زود الإنسان بالعقل وأعطاه كل ما يحتاج إليه لأداء الأمانة « أمانة الاستخلاف ».

وهكذا فإن التفاعل بين العقل والكون يقود إلى الله، بل بين العقل والنفس والروح والوجدان مع الكون يقود إلى معرفة الله.

ولم يكتف الله سبحانه وتعالى بذلك. بل لقد أودع في فطرة الإنسان قبل أن يستخلفه « معرفة الله تعالى » وأخذ عليه ميثاقا بذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

(١) الأعراف آية (١٧٢).

كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذكر الإنسان من فترة لأخرى بذلك الميثاق عبر الأنبياء والكتب السماوية المنزلة، والعلماء الذين يدعون إلى طريق الله. وهكذا فإن الله ـ سبحانه ـ قد أقام على الناس الحجة الكاملة.

إن الله ـ تعالى ـ قد أنزل الإنسان إلى الأرض واستخلفه فيها وهو يحمل العدة الكافية لهذا العمل، ويمتلك الشروط الأساسية لهذه المهمة سواء بتركيب الكون ذات وتسخيره، أو بما ركب الله في الإنسان من عقل وروح وإرادة وتكييف جسدي فذ.

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض وتمعنا فيها وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصيلا بالدور الذي بعث الإنسان لكي يلعبه وبالعمل والجدوى والنظام والغاية التي خلق من أجلها، ولتكون آية للإنسان ودليلا على وجود الله تعالى.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[2].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3]

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[4].

(١) البقرة (٢٩).

(٢) الإسراء (١٢).

(٣) يونس (٥).

(٤) السجدة (٧).

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾[2].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[5].

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[6].

وهذا فإن كل شيء في الكون يثبت ـ وببساطة شديدة ـ الإعجاز الإلهي بدءا من تركيب الكون، وعلاقات النجوم﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ

(١) فصلت (٩ ـ ١٢).

(٢) الروم (٨).

(٣) فصلت (٥٣).

(٤) فاطر (٢٧، ٢٨).

(٥) آل عمران (١٩٠).

(٦) فاطر (١١).

﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]. وإمساك الكواكب والنجوم، وتجهيز الأرض ورفع السموات بغير عمد، ثم خلق الجنين أطوارا، وهندسة الجسم الإنساني واختلاف الألسنة والألوان، وأسرار الجبال والنبات، الخ.. أي أن في كل شيء حكمة تثبت وجود الخالق العظيم وقدرته.

ثم الدعوة إلى إعمال العقل، وهناك عشرات الآيات تدعو للتدبر والتعقل والبصر والنظر والتفكير، وإذا كان هناك تفاعل حر بين العقل والكون فإن النتيجة الوحيدة هي الإيمان بالله بلا أي عوائق.

ولكن على الجانب الآخر تقف القوى الشيطانية، لتمنع هذ التفاعل الحر بين العقل وآيات الله في الكون، وذلك بمنع حرية التفكير، ومنع الحوار الحر بين الناس أيضا وذلك عن طريق الاستبداد السياسي، ووسائل الإعلام التخريبية. انظر إلى فرعون مثلا يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[3].

أي أن فرعون، وكل القوى الشيطانية تجمع الناس على رأي واحد، وتمنع الدعاة بالقمع والاضطهاد وبالاتهامات المختلفة.

ومن ناحية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان كل ما في الكون لخدمته ومساعدته على إنجاز الأمانة الموكولة إليه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[4].

---

(١) الواقعة (٧٥، ٧٦).

(٢) غافر (٢٩).

(٣) غافر (٢٦).

(٤) إبراهيم (٣٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾[2]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[3].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[4].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[5].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[6].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[7].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[8].

وتدبر تلك الآيات الكريمة يعطينا الحقائق التالية:

– أن الله تعالى خلق للإنسان من الثروات ما يلبي احتياجاته جميعًا دون قصور أو نفاد.

---

(١) إبراهيم (٣٢).
(٢) إبراهيم (٣٣).
(٣) إبراهيم (٣٣).
(٤) النحل (١٢).
(٥) النحل (١٤).
(٦) الحج (٦٥).
(٧) الجاثية (١٣)
(٨) إبراهيم (٣٢- ٣٤).

- أن المشكلة تكمن في الظلم أو الكفر، والظلم هنا بمعنى سوء توزيع الثروة والكفر بمعنى عدم استثمار الموارد بصورة علمية صحيحة.

ومحصلة كل ما سبق ميثاق القطرة آيات الله في الكون، تسخير الكون للإنسان، تزويد الإنسان بالعقل ـ تساوي مباشرة الإيمان بالله تعالى وأن تكون مواقف الإنسان وأعماله وأهدافه منسجمة مع الكون ونواميسه ومع السنن الإلهية؛ مما يترتب عليه إنجاز حضاري هائل وسعادة بشرية منقطعة النظير، وهذا ما سعى إليه الإسلام منذ اليوم الأول للخليقة وحتى الآن.

ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، فهناك القوى الشيطانية التي تحاول دائما منع كل هذا التفاعل الطبيعي بطرقها المختلفة؛ فعلى المستوى الشخصي هناك الإغواء الشيطاني، وعلى المستوى الجماعي هناك القوى الشيطانية التي تقوم بما يلي:

- منع الإنسان من حرية التفكير، وحرية المناقشة، وحرية الاجتماع، ومختلف الحريات حتى لا يسمع الإنسان إلا صوتا واحدا هو صوت الضلال، ذلك أن تلك القوى تدرك أن إطلاق حرية الإنسان سوف تقود الإنسان إلى اختيار طريق الله سبحانه، لأنه طريق الفطرة، وطريق العقل، طريق الانسجام بين كل ما في الكون.

- قمع الإنسان اقتصاديا وحرمانه ودعم الطبقات المُسْتَغِلة التي تكبل الإنسان بما أنه غارق في تأمين لقمة عيشه ـ من الوصول إلى الله.

- إراق الإنسان في الضلالات الاجتماعية المختلفة التي تعوقه عن الوصول إلى الإسلام مثل: الدعوات القومية، والعرقية، والعنصرية، ولتعصب للعائلة، والقبيلة، والوطن.. الخ.

- والنتيجة الطبيعية لمثل هذا إنجاز حضاري متفكك، وتمزق بشري شامل وشقاء نفسي عميق، ومصير سيئ في الدنيا والآخرة. وهذا هو ما سعت إليه بالضبط المذاهب الوضعية.

- ومن هنا، فالصراع بين القوة الإسلامية، والقوى الشيطانية صراع ممتد إلى كل شيء: في النفس، وفي الجماعة، وفي المنهج، وفي العلم، وفي الاقتصاد وفي الحركة اليومية.

ووفقا للخصائص السابقة لكل قوة وأساليب عملها، فإن عمل الطليعة المسلمة يتمثل في أمرين:

- التربية: لمواجهة الإغواء الشيطاني.
- الجهاد: العسكري والسياسي والاجتماعي.

العسكري: لإزالة القوى الاستكبارية.

والسياسي: لانتزاع الحريات الإنسانية مثل حق التفكير الحر وحق الاجتماع وحق إصدار الصحف.. الخ.

والاجتماعي: بالتصدي لكل أشكال الظلم الاقتصادي وبناء المجتمع اللا طبقي وكذلك إسقاط الانتماءات القومية والعرقية والعائلية.

وبكلمة أخرى فإن الطليعة المسلمة، مطالبة بالانحياز إلى المستضعفين من البشر وقيادتهم في اتجاه انتزاع حرياتهم السياسية ومطالبهم الاقتصادية العادلة.

ومحصلة هذا كله أن يصبح الإنسان حرا في الاختيار، وبالتالي تحقق للفطرة والعقل والكون تناغمه البسيط والمنطقي الذي يقود إلى الله تعالى.

إن مهمة الطليعة المؤمنة ليست إكراه الناس على الإسلام، ولا التفكير بدلا عنها أولها، ولكن فقط تحقيق الظرف الحر للاختيار. أي إقامة الحجة على الناس، وبديهي أن الناس إذا ما انتفت عوامل الضغط تستجيب إلى فطرتها.

(٥)

كما قررنا من قبل، فإن دراسة التاريخ فريضة إسلامية، ودراسة التاريخ

المعاصر لمصر بالتالي فريضة إسلامية وواجب شرعي تمليه كثير من الظروف، وهذه المهمة تقع على عاتق الطليعة المؤمنة، وإذا كان من المسلم به أن التاريخ المعاصر لمصر قد تعرض لعملية تشويه مقصودة ومتعمدة من قبل المدرسة الاستعمارية فإن الواجب يصبح أوجب، والفريضة تصبح أكثر إلحاحا.

ومن البديهي أن مسألة دراسة التاريخ المعاصر لمصر هي أحد أهم شروط النصر الإسلامي المرتقب بإذن الله تعالى، ليس لأن التاريخ هو صانع المستقبل، وليس لأن فهم ما حدث سيجعلنا أكثرة قدرة على فهم ما سوف يحدث. وبالتالي يجعلنا ندرك خصائص القوى المعادية، ويجعلنا نرتب أولويات مهامنا في اللحظة الراهنة ولأعوام كثيرة قادمة فحسب. بل لأن التاريخ المعاصر لمصر هو الذي حدد ملامح اللحظة التي نعيشها، ومناخ شكل الصراع في عصرنا اليوم.

ومن نافلة القول أن دراسة التاريخ المعاصر لمصر مسألة لا يقدر عليها شخص، بل تحتاج إلى مجهود العشرات بل المئات من الباحثين الجادين، الذين يحبون بلادهم، ويكرهون أعداءها والذين هم على استعداد لبذل الجهد العلمي الدءوب من أجل ترسم خطى النضال اليومي للشعب المسلم في مصر.

إن المدرسة الاستعمارية، التي قدمت لنا تفسيرها المزيف، ورصدها المبتر لحركة التاريخ المعاصر في مصر، كانت تقصد ذلك عن سبق إصرار، وذلك لقطع ذلك التواصل الفذ لجهاد شعبنا المسلم في مصر بعضه عن البعض الآخر، وعن مجريات الأحداث في العالم الإسلامي الذي ترتبط مصر به عضويا بحكم التاريخ والجغرافيا.

كما أن تلك المدرسة أرادت أن تضرب وعي الشعب المسلم في الصميم وذلك لطمس معالم البطولة في تاريخه المعاصر، أو تفسيرها تفسيرًا إقليميا أو طبقيا أو غيرها من تفسيرات المدارس الاستعمارية، إنا سنضرب عددا من الأمثلة على تلك الطريقة التي عالجت بها المدرسة الاستعمارية تاريخنا المعاصر في

محاولتها الشيطانية لضرب حيوية الأمة والسير بها في مسارات جانبية.

- ترى المدرسة الاستعمارية مثلا ـ أن التاريخ ما هو إلا سلسلة من المؤامرات وأن القوى الكبرى مثلا هي التي تتحكم بمصائر شعوبنا، وهكذا فإن التاريخ لديها ليس إلا صراعات القوى الكبرى وانعكاسها علينا، ليس إلا تتبع حركة وزراء الخارجية والدفاع في الدول الكبرى، وتسقط تلك المدرسة عن عمد دور الشعب المسلم في صياغة حياته، وجهاد الدءوب الذي لم ينقطع يوما. وبديهي أنها تريد بهذه الطريقة أن تقول: أن شعبنا المسلم في مصر ليس له إلا دور ثانوي، وإن مصيرنا يتقرر في العواصم الكبرى. وبالتالي فليس علينا أن نجهد أنفسنا في العمل، بل علينا أن نقنع هذه العاصمة أو تلك بأهدافنا، أو نلعب على التناقضات بين تلك العواصم، والهدف الأخير من ذلك هو إخراج الشعب المسلم من العملية تماما.

- تحاول المدرسة الاستعمارية إغفال دور العلماء الشرفاء الذين قادوا الأمة في مواجهة الاستعمار والصهيونية، أو تحجيم دور هؤلاء العلماء، وذلك لأن المدرسة الاستعمارية تدرك أن التلاحم بين الأمة والعلماء هو الطريق الصحيح والوحيد لإنجاز أهداف أمتنا وتحررها وتقدمها.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى [1].

- تحاول المدرسة الاستعمارية دائما أن تقول أن جهاد الأمة وانتفاضها لم يكونا سببا في تقليل المد الاستعماري وتحجيمه ولكن العكس، بمعنى أنها تؤدي إلى كوارث وطنية ومصاعب للأمة. [2].

وعلى ذلك فالقوى الشريفة هي تلك القوى التي تصدت بالكفاح المسلح

(١) مثل عبد القادر الجزائري ـ عمر المختار ـ آية الله الشيرازي ـ عبد الكريم الخطابي ـ جمال الدين الأفغاني ـ عبد الله النديم.. الخ.

(٢) المرجع السابق.

للاستعمار: لأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة لمواجهة الاستعمار، وهي تلك القوى التي ربطت بين الاستعمار والاستبداد ووقفت مع المستضعفين، وهي تلك القوى التي آمنت بالوحدة الإسلامية وانتماء مصر الإسلامي.

ويمكننا اعتبار الاستعمار مجرد حلقة جديدة من حلقات الغزو الصليبي، وليس من الغريب أن يقف أحد القادة الأوروبيين على قبر صلاح الدين الأيوبي محرر القدس قائلا: « لقد عدنا يا صلاح الدين »[1].

والحقيقة أن التطور الرأسمالي للغرب يعود في مجمله إلى الظاهرة الاستعمارية على عكس المقولات الشهيرة بأن الاستعمار ناتج عن الرأسمالية، وهو ما أكده عدد من الباحثين من أمثال الأستاذ/ سعود المولى[2] أي أن الرأسمالية نشأت نتيجة تراكم الثروات والخامات والعبيد من المستعمرات، ولم يكن غريبا أن معظم كبار رجال البنوك وأصحاب المؤسسات الرأسمالية في الغرب كانوا في الأصل إما تجار رقيق، أو أصحاب مقاهي الأرصفة التي تدار عليها صفقات البيع والشراء للعبيد المجلوبين من المستعمرات.

وإذا كان الاستعمار يمثل القوى الشيطانية في عالمنا المعاصر، فبديهي أنه يستخدم أساليب تلك القوى الشيطانية، وهي أساليب الاستبداد، والظلم الاقتصادي في نشر الأفكار الاجتماعية المنحرفة والمذاهب الوضعية.

وبديهي أن الاستعمار كان قد استوعب درس الحملات الصليبية الأولى فلم يركز فقط على الغزو العسكري، بل مارس غزوا عسكريا وسياسيا وثقافيا مكثفا، وجاء نابليون معه بالعلماء، وتدخل المندوب السامي الإنجليزي في شئون البلاد

---

(١) مثلا يقول هيكل في كتابه خريف الغضب: أن انتفاضة الشعب في مصر في ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ قد أدت إلى تفكير السادات في زيارة القدس.

(٢) انظر كتاب د. عبد العظيم رمضان في كتبه «تطور الحركة الوطنية في مصر» حيث قسم القوي على النحو المذكور.

التعليمية والتشريعية كما قام الاستعمار بزرع مدارس التغريب ومؤسسات الاغتراب ونشأت مدارس أدبية ومناهج تعليمية وأفكار مغتربة، كما تم التلاعب في طرق الإنتاج ووسائله بطريقة تخدم الاستعمار. لقد ركز الاستعمار على إفقاد بلادنا شعورها الجماعي وروح الانتماء فيها. وقام بزرع ثقافته وأنماط فكره وحضارته ولغاته فينا، كما قام بتدمير كل صناعة وطنية محلية تعتمد في إنتاجها على السوق المحلية وراح يرسم سياسة اقتصادية تربط مصر بالعجلة الاقتصادية للغرب ولم يتسامح قط في ظهور صناعة محلية منقطعة الصلة إنتاجا واستهلاكا عن دوائره الاقتصادية.

* * *

(٧)

تعمد الاستعمار أن يزرع الكيان الصهيوني في قلب الأمة ليكون -حائطا بين شرق الأمة وغربها، ولتكون إحدى أهم قوى الشيطان في المنطقة موجودة بداخلها، وجاهزة للعمل دائما وفورا خدمة لمخططات الشيطان، والكيان الصهيوني استغل فرصة رغبة الاستعمار لإقامة رأس حربة شيطانية في المنطقة وقدم نفسه للقيام بهذا الدور، وهكذا التقت رغبة قوتين شيطانيتين.

وفي الواقع أصبح التماس مع الكيان الصهيوني، وهو التناقض الأكبر في المنقطة، بل وأصبح المفتاح لهم كثير من معادلاتها.

ويأخذ الصراع بين القوة الربانية والكيان الصهيوني ورأس الحرية الشيطانية شكله الخاص إذا ما أدركنا أن هناك تناقضا جوهريا بين الطليعة المؤمنة وعموم الأمة وبين رأس الحربة الشيطانية (إسرائيل)، وأن هناك تناقضا ثانويا آخر بين الحكومات العربية وبين إسرائيل.

والتناقض الأول لا يحسمه إلا الكفاح المسلح، والثاني يحسم بالمفاوضات

أو بالحروب المحددة.

كما أن التناقض الأول لا يحسم إلا بفناء أحد الطرفين، ولا أرضية مشتركة أصلا بين الطرفين، والثاني يمكن أن يحسم بتحقيق شكل من أشكال التعايش وتبادل المنفعة بين الطرفين.

***

حضارتنا وحضارتهم تشريح جثة الاستعمار

مع صعود الحضارة الأوروبية وتفوقها على الكيانات الحضارية والسياسية الأخرى في القرون الثلاثة الأخيرة. انقسم العالم قسمين: عالم المستكبرين وعالم المستضعفين ولكل من المعسكرين سماته وخصائصه وتقسيماته أيضا:

وتمخضت الحضارة الغربية عن ثلاثة أنماط تحمل كلها خصائص تلك الحضارة وظلمها واستكبارها وهي: المذهب الحر والفاشية والشيوعية، وعانت البشرية على يد الأنماط الثلاثة التي تمخضت عنها الحضارة الغربية ويلات كبيرة ومظالم متعددة.

ويلاحظ أرنولد توينبي في دراسته لتاريخ الحضارات أن المنافسة بين الاتحاد السوفييت والولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالي على اجتذاب ولاء البشرية موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي.

ولعل موريس توزريز زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي وأحد كبار قادة الحركة الشيوعية الدولية وأحد أبرز وجوهها المعدودين قد أكد هذه الحقيقة بقوله: « أن الناس في الجزائر وأفريقيا ليسوا شعوبا بل إنهم لا يزالون في دور التكوين » أي أن سيطرة الاستعمار الفرنسي عليهم ذات هدف ولا بد لهؤلاء الناس من أن يعيشوا فترة في أحضان الاستعمار وأن يتربوا على يديه من أجل أن يصيروا شعوبا متحضرة. وهو نفسه ما قله الرئيس الأمريكي روزفلت عندما زار مصر.

ولقد قامت الحضارة الغربية أصلا على القهر والتدمير والاستعمارات وأدت إلى شكل كريه من العلاقات بين عالم المستكبرين وعالم المستضعفين. بل حتى داخل معسكر الاستكبار ذاته فإن قيم تلك الحضارة لم تعد قادرة على كبح جماح نفسها من أذية شعوبها ذاتها بالتلوث النووي وحرب الكواكب وتراسانات السلاح الشيطاني الذي إذا خرج من القمقم فسيدمر الجميع.

والرد الوحيد المتاح هو ظهور أيديولوجية بديلة تستند على قيم قادرة على إنقاذ المستضعفين من المستكبرين. وإنقاذ المستكبرين أنفسهم من المستكبرين وإنقاذ المستكبرين أنفسهم من أنفسهم.

وإذا ما ناقشنا عن الثقافات المتاحة في العالم فسنجد أن الإسلام وحده هو القادر على الاستجابة وإعطاء عالم المستضعفين أيديولوجيته القادرة على المواجهة والتحرير والإنقاذ، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب، أولها أن الثقافة الإسلامية لم تندثر تحت وطأة الحضارة الغربية بل ما زالت قادرة على العطاء، وأنها أيديولوجية عالمية وليست محلية ـ وأنها ترتبط بصلات وثيقة بكل عالم المستضعفين وأنها أيديولوجية تمتلك في داخلها حيوية مذهلة.

إن نظرة على العالم تعطينا تقسيمة واضحة لذلك العالم، فهناك عالم من المستكبرين: عالم الحضارة الغربية (أوروبا ـ الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفييتي) وهي حضارة قامت على أكتاف الطبقة المتوسطة وفقدت سيطرتها على نفسها في أوروبا، وفي أمريكا قامت على أكتاف المهاجرين الذين دمروا السكان الأصليين وأبادوهم ثم عادوا وانقسموا إلى مهاجرين أوروبيين لهم السيادة ومهاجرين سود مستضعفين ومنبوذين، بل أن المهاجرين الأوروبيين البيض أنفسهم مارس بعضهم على البعض الآخر استكبارا وعنفا وقهرا تمثله الولايات المتحدة ضد سكان أمريكا اللاتينية، وفي الاتحاد السوفييت ساد الروس الأوروبيون ومارسوا قهرا واستكبارا على شعوب الاتحاد السوفييت الآسيوية.

وفي عـالم المستضـعفين نجـد كـل شـعوب آسـيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينيـة والملونين في أوروبا وأمريكا: وقد يبدو للبعض أن الصين مثلا قد اتخذت الطريق الشيوعي الذي هو إحدى نتائج الحضارة الغربية، لكن النظرة الفاحصـة تؤكـد أن الأمر لا يعدو قشرة خارجية ضعيفة ما تلبث أن تنقشع سريعا ليظهـر عـالم الصـين المستضعف الحقيقي والمنحـاز إلى معسـكر المستضـعفين، وقـد يبـدو للـبعض الآخر أن الثقافة الهندية أو الصينية أو الإفريقية قد تكون أيديولوجية صالحة لعـالم المستضعفين، إلا أن تلك النظرة قاصرة، فمن ناحية انتهت تلك الحضارات تماما وانقطعت، كما أنها حضارات محلية غيـر صـالحة لمواجهـة عالميـة « الحضـارة الأوروبية ».

وليس أمام عالم المستضعفين إلا طريقان ـ إما اعتناق الأيديولوجية الإسـلامية القادرة على المواجهة وإنقاذ العالم، وإما الخضوع للحضارة الأوروبية التـي عـانى منها عالم المستضعفين آلاما ومآسي أكثر من قدرته على الاحتمال، فضـلا عـن أن تلك الحضارة لن تسمح له بحكم قيمه وتركيبتهـا أن يكـون جـزء منـه: أن تلـك الحضارة التـي قامـت عـلى الطبقـة الوسـطى الصـناعية وعـلى الاسـتعمار وفـتح الأسواق، لن تسمح بقيـام طبقـة متوسـطة في عـالم المستضـعفين تضـطلع بمهـام الاندماج في تلـك الحضـارة، لأن ذلـك معنـاه فقـدان امتيـازات ومكاسـب عـالم المستكبرين، أن عالم المستكبرين قد رسم طريق الاندماج والالتحاق به عن طريق نخبة مثقفة بثقافة غربيـة تقـوم بمهمـة الوكيـل والشـرطي: الوكيـل الـذي يصـدر الخامات والعبيد، والشرطي: الذي يقمع أي محاولـة للتصـدي للنهـب وكشـف أساليب الاستكبار، وهكـذا لـيس عجيبـا أن تظـل كـل بـلاد العـالم المستضـعف محكومة لتلك النخبة المثقفة دون أن تظهر فيها الطبقة المتوسطة الصناعية.

إن المفارقة الجديرة بالتسجيل والملاحظة أن اليهود قد عانوا مـن الاضـطهاد والتشريد على يد الحضارة الأوروبية في كل بلادها بلا استثناء مما كان يجعلهـم في صـف المستضـعفين، إلا أنهـم اسـتجابوا للإغـراء الاسـتكباري، وانحـازوا إليـه

وأصبحوا جزءا منه، وبدلا من أن يقفوا ضد جلاديهم تجمعوا وراحوا يمارسون دور الجلاد نفسه ودور الحليف للاستكبار في العالم وشردوا شعبا مسلما هو شعب فلسطين وأقاموا دولة استكبارية عدوانية تقوم بأقذر الأدوار خدمة للاستكبار.

* * *

إذن فليس أمام العالم المستضعف إلا طريق المواجهة، وليس أمام من خير إلا تلك المواجهة تحت راية العقيدة الإسلامية، وإن الواجب التاريخي يقتضي من الأمة الإسلامية وطلائعها أن تنهض بهذا العبء وأن تمد صلتها وروابطها بكل عالم المستضعفين في الأرض تمهيدًا ليوم الخلاص والتحرر لعالم المستضعفين من قبضة المستكبرين، وإنقاذ المستكبرين من أنفسهم، وإرساء معالم عالم جديد تسوده العدالة والحرية والإخاء.. عالم ينتهي منه الفقر والجهل والمرض.

والإسلام لم يعرف الركود منذ أن ظهر وإلى الآن، ولم ينحصر جغرافيا ـ فالإسلام كدين لم يتوقف عن الانتشار حتى في القرون الخمسة الأخيرة التي شهدت صعود نجم الغرب، في هذه الفترة بالذات انطلق الإسلام إلى أفريقيا لنجد أن أفريقيا اليوم أصبحت نصف إسلامية وربما تكون في المستقبل القريب قارة إسلامية بالكامل.

وفي الفترة نفسها دخل الإسلام إلى شرق آسيا واستقر في بلدان مثل كوريا والفلبين وتايلاند وسواها حيث لم يمكن موجودًا هناك.

وفي التاريخ المعاصر أيضًا دخل الإسلام إلى قلب العالم الغربي: إلى أمريكا ذاتها، وانطلاقة الإسلام في الولايات المتحدة هي انطلاقة في قلب الغرب، والإسلام هناك اجتماعي، إنه ينتشر أن السجناء الذين كانوا غارقين في المخدرات والموبقات الأخرى، هذه معجزة الإسلام الحقيقية، أنه زهرة تنبت في وسط

مستنقع.

والإسلام حي لم ولن يموت، والعثمانيون كادوا يحتلون النمسا في ١٦٨٣ بل كادوا يحتلون أوروبا بكاملها واستمروا كإمبراطورية حتى الحرب العالمية الأولى.

وظهرت الخلافة الصوكية في بداية القرن العشرين في غرب أفريقيا، والإسلام ما زال مؤثرا على المستوى الثقافي وترك بصمات واضحة على جميع الهنود على اختلاف أديانهم وأخيرا هناك الثورة الإيرانية، إذن فالحضارة الإسلامية ما زالت حية وتقدم كل يوم دليلا جديدا على حيويتها.

* * *

إن العالم منذ صعود الحضارة الغربية « عنفا أسود »، ففي غضون ٣٠ سنة فقط أبيد حوالي ٢٥ مليونا من الهنود الحمر وهو رقم كبير جدا إذا ما علمنا أنه في تلك الفترة كان عند سكان بريطانيا مثلاً هو ثلاثة ملايين نسمة ـ وقامت تلك الحضارة ذاتها بإبادة حوالي ١٠٠ مليون أفريقي كانوا يموتون من جراء المعاملة السيئة في المراكب ومن جراء القتل والحرق: ومعنى ذلك أن هؤلاء الـ ١٠٠ مليون زنجي الذين أبيدوا « يعادلون حوالي ١٠٠٠ مليون الآن »، كانوا كفيلين بجعل أفريقيا كبرى القارات في العالم.

وفي الجزائر ـ مثلا ـ قام الاستعمار الفرنسي بنقل وتفريغ مليونين من السكان (كانت الجزائر وقتها ٤ ملايين) أي أنهم قتلوا نصف السكان في عملية الاحتلال ثم راحوا يقتلون مئات الألوف كل عدة سنوات مع كل انتفاضة.

إن الصورة بداية من قتل الهنود الحمر، وإبادة الزنوج والعرب إلى جرائم هتلر وموسوليني وستالين مرورا على كرومر ونابليون واللنبي وبيجو إلى ومنا هذا ترينا أن هناك خيطا واحدا متسلسلا بمنطق واحد، حلقة بعد حلقة، والحرب العالمية

التي انتهت باستخدام القنبلة الذرية ضد اليابـان، وقـد كـان عـدد القـتلى في تلـك الحرب ٦٢ مليونًا من البشر ـ ثم أفران الغاز وجرائم ستالين المروعة وصـولا إلى ما فعلوه في بيـروت وفلسـطين، إنهـا الحضـارة الغربيـة: حضـارة القتـل والـذبح والتدمير والحروب والقنابل الذرية والتلوث والإبادة والجـوع النفايـات وإفسـاد البيئة.

***

الحضارة الغربية نمت وظهرت على أساس فكرة خبيثة هي فكرة المنفعة الـلا أخلاقية وأدى هذا إلى الاستغلال والسيطرة والصراع والعنف والقتل.

وتمخضت تلك الحضارة عن إبادة أجناس كاملة مثـل الهنـود الحمـر، وعـن استرقاق الزنوج، وعن ظهور طفل خبيث هـو الاسـتعمار الـذي هـيمن ولم تقـف حدود هيمنته إلا عند آخر حدود الأرض من حوله وما زالت هـذه الهيمنـة قائمـة ومستمرة إلى يومنا هذا وإن كانت الأساليب قد تبدلت وتغيرت: ـ

- تمخضت تلك الحضارة المريضة عن حروب داخلية وقمع بشع وحربين عالميتين عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٩ وذهب في الأخيـرة وحـدها سـتون مليونـا مـن البشر.

- أدت تلك الحضارة إلى ظهور نماذج مثل هتلر وستالين وموسوليني.

- أدت إلى إعدام الزراعة في كثير من بلدان العالم، خصوصا النامية وأدت إلى المجاعة التي يموت بسببها سنويا خمسون مليونا من البشـر ضـمنهم خمسـة عشـر مليون طفل، ومأساة الجوع هذه تتضخم بسرعة هائلة بسبب القضاء على الزراعة، وقد بقيت الولايات المتحدة وحدها القادرة على تصـدير الغـذاء وهـذه لـن تبيـع الغذاء لك إلا إذا كنت شخصا مرضيا عنه.

- وهناك ١٧ مليون هكتار من الغابات يتم القضاء عليها سنويا وهي عنصـر

التوازن البيئي الأول (انتهى ٤٠ ٪ من الغابة الاستوائية).

- وفي ألمانيا ذاتها ستنتهي الغابة السوداء الشهيرة خلال عشر سنوات كما انتهت بالفعل غابات أخرى في ألمانيا وسويسرا وغيرها، هناك زحف الصحراء وهناك مأساة التلوث البيئي التي تتكشف أخطارها في كل يوم.

- هناك ٤١ دولة مفلسة (من أصل ١٢٣ دولة) لا تستطيع حتى أن تدفع فوائد ديونها وهي شعوب تعيش متسولة أشبه ما تكون بوضع البعير في الماء بالكاد يبقى رأسها فوق الماء للتنفس ولا تموت بسرعة، وهذا الوضع ليس مرشحا للنقصان بل العكس. البنك الدولي نفسه يقول أن ٤١ دولة يمكن أن تصبح مائة دولة.

- إن ٣/٤ البشرية اليوم لا يعيشون بينما الـ ١/٤ يحظى بكل شيء ويستهلك كيفما يشاء والأخطر أن هذه النسبة تزداد تضخما فتصبح ٥/ ٤ ثم ٦/ ٥ وهكذا.

- هناك اغتراب بسبب تقسيم مجحف وغير طبيعي للعمل إلى أجزاء صغيرة.

- إن فرنسا مثلا فيها تسعة ملايين كلب و ٨ ملايين قطة تستهلك ما مجموعة (٢٣٠٠٠) مليار فرنك قديم سنويا بينما ميزانية الصومال لا تتجاوز ٤٠٠ مليون دولار - أي أن كلاب وقطط فرنسا تأكل عشر مرات أكثر مما يأكل الشعب الصومالي كله.

- إن النظام الذي تمخضت عنه هذه الحضارة ينظم الأزمات متعمدا ويخلقها ويوزعها على الدول الفقيرة والمتخلفة، وهي حلقات مترابطة من إفلاس الدول إلى المجاعة وإلى أزمة البيئة وإلى التصحر: إنها أزمة حضارة كاملة.

* * *

العالم الاشتراكي اليوم يتحرك باتجاه الالتحاق بالعالم الرأسمالي، كان من المتصور في أول الأمر أن الماركسية - أو الاشتراكية - ستبني إنسانا مختلفا عن

مثيله في النظام الرأسمالي، وبالذات فيما يتعلق بالاستهلاك، لكن الواقع أن الأحزاب الشيوعية ذاتها سواء في المجتمعات الشيوعية أو غيرها هي التي تقرر بنفسها عاما بعد عام اللحاق بالمجتمع الغربي في كل شيء ثم الالتصاق به في النهاية [1].

كنا نتوقع نوعية أفضل للإنسان الذي سيفرزه العالم الاشتراكي، رجلا مختلفا وامرأة مختلفة، عندهما قيم مختلفة، ولكن الذي وقع أن الإنسان في المجتمعات الاشتراكي مثله في المجتمع الرأسمالي يلهث وراء الاستهلاك، وربما أكثر من مثيله، ثم أن الأزمات داخل العالم الاشتراكي أكثر من مثيلتها في المجتمع الرأسمالي يلهث وراء الاستهلاك، وربما أكثر من مثيله، ثم أن الأزمات داخل العالم الاشتراكي أكثر من مثيلتها في المجتمع الرأسمالي، حتى أن الحياة عندهم لا تطاق: أن كبار رجال الدولة السوفيتية مثلا يعترفون وبالأرقام والمعلومات الدقيقة والمفصلة بصورة واضحة مؤداها أن العالم الاشتراكي يحتوي على الأمراض نفسها الموجودة في العالم الرأسمالي من الرشوة إلى الفساد حتى في جهاز العدل.

الشيوعية ظهرت اليوم على حقيقتها إفرازا ثانيا للأرضية الثقافية التي أعطت الإفراز الأول، ومن يتعمق في التاريخ وفي الوسيولوجيا فسيجد أن هذا لم يحدث منذ سنوات مثلا، ولكن منذ اللحظة الأولى، أن الثورة الروسية في اللحظة الأولى وقفت موقف التواطؤ مع البريطانيين ضد ثورة كوتشك فإن الإسلامية وطحنوها معا. والتخلي عن العالم الثالث أصبح شيئا ملازما للطبع والسياسة السوفيتيين، كما أن ستالين مثلا قتل سلطان غاليف وحاول قتل المفكر الهندي « روي » لأنهما كان يتكلمان عن التعاون مع العالم الثالث.

---

(١) وكذلك الانتفاضات الفلاحية في قرى الريف المصري ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ انظر كتاب محمد مورو «دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع» دار البحوث العلمية ١٩٨٠.

هذه الأشياء وغيرها هي التي دمجت النظامين معا ثم جاءت يالطا لتكشف كل شيء على حقيقته؛ يالطا على الأرض ويالطا أخرى في السماء حيث التحمت مركبة الفضاء السوفيتية سويوز مع مركبة الفضاء الأمريكية أبولو، أليس هذا تعبيرا عن أشياء كثيرة. وأخيرا هناك احتلال أفغانستان. وقبله كان اجتياح المجر وبولندا وغيرهما.

الحضارة الغربية أفرزت عدة أشكال سياسية وأيديولوجية تنتمي للأرضية نفسها وتؤكد المنطق نفسه « منطق الربح ». الرأسمالي في الغرب بين أيدي الأفراد بينما هو في الشرق بين أيدي الدولة ولكن الأمر بالنسبة للعمال لا فرق فيه ـ المنطق نفسه.. العلاقة نفسها ما بين العامل والدولة حيث تقوم على المضاربة على جهد العامل أي على الربح، إذن فالسوفيت خلقوا الدولة الرأسمالية في التاريخ والحقائق نفسها تقول أن بولندا مثلا مفلسة وعليها من الديون ٢٥ مليار دولار منها ثمانية مليارات للغرب، والآن وضعت خطة تنموية للإصلاح، الغرب هو الذي يمولها بالدرجة الأولى، والاشتراكية الآن أشبه ما تكون برجل مريض والرأسمالية أشبه ما تكون برجل يقدم الدواء للمريض فلمادا تدعمها إلى هذا الحد؟!

وهذا الكلام لرئيس شركة فيات للسيارات الإيطالية ـ الذي يقم مصانعه في الاتحاد السوفيتي، والشركات المتعددة الجنسيات ـ التي تحكم العالم في الحقيقة، والتي تفوق ميزانية إحداها ميزانية دولٍ بكاملها هي ذاتها التي تدعم الدول الاشتراكية، ولنراجع مثلا ما كتبه رئيس نقابة الكيمائيين في العالم الذي ألف كتابا عنوانه « كوكاولا وفودكا » وهو يعطي صورة عن لقاء دائم بين مدراء الشركات المتعددة الجنسيات ومسئولي الدول الاشتراكية يتفاوضون ويلعبون الجولف ويصوغون حياة واحدة.

إذن فالاستكبار واحد؛ وهو نتيجة حتمية للحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي

والاشتراكي، انظر مثلا إلى وزير الدفاع الفرنسي عام ١٩٤٥ وكان شيوعيا هو الذي أمر سلاح الطيران الفرنسي بقصف الشعب الجزائري، والحزب الشيوعي الفرنسي بل والجزائري كانا يحثان دوما على الإبادة في مواجهة الانتفاضات الجزائرية.

***

إذن ففكرة الخلاص عن طريق الشيوعيةوهم، لأنها جزء من معسكر الاستكبار بل أن معسكر الاستكبار نفسه يريد لنا سلاحا مزيفا حتى يظل جاثما فوق أنفاسنا، أن فكرة الفئة التاريخية « الطبقة العاملة » التي ستقوم بالثورة هي في حد ذاتها جزء من الزيف الاستكباري؛ فمن ناحية لم يقم العمال كطبقة بالثورة لا في الصين ولا في كوبا ولا في الجزائر وإنما الفلاحون. والعمال الغربيون اقتنعوا باقتسام المغانم مع الرأسمالية على حساب الشعوب المستضعفة؛ في الجزائر مثلا كان موقف العمال الفرنسيين استعماريا أكثر من العسكريين، وكانوا في المعارك أشرس من قاتلي الثورة الجزائرية، بل كانت آخر المعارك معهم بالذات في حي «باب الواد » في العاصمة، ومن ناحية ثانية فإن العمال كطبقة أصبحت نسبتهم تتراوح بين ٨ ٪ و ١٠ ٪، إذن فلا قدرة لهم على الثورة اليوم.

إن كل هذا يؤكد أن المستضعفين من كل المهن (عمالا ـ فلاحين ـ مهنيين ـ موظفين) هم القادرون على الثورة ووقف مسلسل الظلم والقهر في العالم، ولكن كيف ذلك؟ هل بأيديولوجية نابعة من نفس الأرضية الثقافية للاستكبار أم بأيديولوجية نابعة من أرض المستضعفين؟.. إذن فلا حل إلا بالإسلام وبالأيديولوجية الإسلامية.

***

والمهمة الأولى التي على طلائع المسلمين أن يعوها ويقوموا بها هي ضرب تصفية أي ثقافة في داخل أمة الإسلام، والشعوب المستضعفة تكون مصابة

بالانتماء العضوي للنظام العالمي الغربي؛ لا بد من إبداع ثقافة خارج إطار الحضارة الغربية. وهذه الثقافة المستقلة هي الإسلام. انظر مثلا إلى بعض التشوهات التي ترد إلينا من الغرب وتريد أن تزدهر داخلنا كبديل أو بالتوازي مع الثقافة الإسلامية أو حتى بالاندماج بها بهدف ظهور جنين مشوه غير قابل للاستمرار والمواجهة.

وإذا كنا قد عرفنا أن الشيوعية أو الاشتراكية تنبع من الأرضية الثقافية الغربية نفسها، فالأمر ذاته ينطبق على القومية عموما، وعلى القومية العربية خصوصا التي يحاولون إبرازها بالتوازي مع الإسلام لتشويهه، أن تأثير الفكر الأوروبي في بلورة القومية العربية كان واضحا، فهي ليست أطروحة نابعة من صلب الإسلام، بل إنها نتيجة مخاض غربي وبتوجيه غربي رجاءت كمقابل للإسلام، فكانت أولى انزلاقاتها مخاصمة العثمانيين، وساهم فيها بنشاط المسيحيون العرب، ويمكن الآن أن تربط بسهولة بين ميشيل عفلق، والبرسوناليزم في فرنسا، يمكن أن تربط بين دعاتها وقادتها والتيارات الغربية بوضوح وبساطة. انظر مثلا إلى حزب البعث باعتباره الأكبر والأغلب في هذا الإطار ـ قام هذا الحزب مثلا بدور مشبوه لفض الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٦١ وكذلك إفشال الوحدة الثلاثية في عام ١٩٦٣. وهكذا كان بين مصر وسوريا ١٩٦١ وكذلك إفشال وكذلك إفشال الوحدة الثلاثية في عام ١٩٦٣. وهكذا كان البعث كارثة على العرب ذاتهم، انظر أيضا حركة القوميين العرب التي ظهرت في الخمسينيات وأوائل الستينات ودعت إلى التعصب القومي والعنف القومي سرعان ما انهارت وتحجرت الفكرة عند الجانب الثقافي واتجهت غربا وأصابتها أمراض الغرب وتحولت إلى فرق يسارية. أن القومية العربية ببساطة معناها أن ننعزل كعرب عن باقي المسلمين وعن باقي المستضعفين ومعناه خسارة المعركة مع النظام العالمي الشرير، معناها خروج الجزائر والسودان وغيرها لأنها عرقيا ليست عربية مثلا.

* * *

إذن فقد أصبح من الأمور المعلومة بالضرورة أن النظام العالمي الحالي القائم على الحضارة الغربية هو نظام شرير ومجرم ومستكبر. وأن مقاومة ذلك النظام أمر حتمي من أجل خلاص البشرية، وأن التصدي لهذا النظام لا يمكن أن يكون بأدوات من داخله. وأن الإسلام هو الظاهرة الثقافية الوحيدة التي تنبع من خارج هذا النظام وهو وحده القادر على الحشد والتعبئة والمواجهة، أي أنه أيديولوجية المستضعفين وهذا الأمر ذاته يفجر سؤالا جديدا حول تقييم الحركة الإسلامية المعاصرة باعتبارها الحامل لهذه الأيديولوجية، وهناك أيضًا دول إسلامية تقول إنها تطبق الإسلام أو الشريعة الإسلامية، وهذه الأمور هامة جدا أن نقيمها حتى لا نقدم بديلا ناقصا أو عاجزا أو مغرقا في الجزئية.

إن النظام العالمي. هو منهج متكامل وشرير، وعلينا أن نقدم منهجا متكاملا وخيرا، وعلى الحركات الإسلامية أن تعي هذا وأن تقدم لهذا المنهج، هذه مسؤوليتها. عليها أن تتعاون في هذا وأن تقوم بالنقد الذاتي لنفسيها وأن يحاور بعضها بعضا. وعليها أولا وأخيرا أن تعي أنها طليعة أمة الإسلام وطليعة المستضعفين.

وفي مصر مثلا هناك رافدان للحركة الإسلامية عموما: رافد ثوري ومنهجي مستمد من الأفغاني والنديم ورافد جزئي ومنعزل مستمد من محمد عبده الأول يرى على طريق المواجهة مع الغرب والثاني تلفيقي يرى الاستفادة والالتقاء مع لغرب.

لا بد إذن أن نفهم النظام العالمي الحالي، وننظر إلى تاريخه، ونرى إمكانات لخروج من ربقة الهيمنة الدولية وشبكات الاقتصاد والثقافة والقانون وكل لخيوط والخطوط التي ينسج بها علاقاته التحكمية الطاغية. وإذا لم نفعل ذلك فلن نعرف كيف نواجه النظام العالمي السائد؛ لأنه مؤسسة مترابطة عضويا يسيطر عليها الغرب منذ خمسة قرون، وهذا النظام تطور الآن إلى التكتلات

الكبرى، وهذا يطرح قضية الوحدة؛ فإما الوحدة وإما الموت، لا بد من ترجمة صحيحة للإسلام تستوعب تلك المشاكل، يجب أن نجتهد ونجيب عن العديد من الأسئلة: كيف تتوحد؟ كيف نواجه الإمبريالية والعنصرية والصهيونية؟ كيف نجد التنمية البديلة؟ كيف نتفادى المجاعة؟ كيف نحقق ثورة في داخل الحركات الإسلامية وداخل الأمة الإسلامية بشعب نستطيع أن نقدم أيديولوجية إسلامية تكون لكل المستضعفين؟ كيف يمكن لشعب من الشعوب غير الإسلامية أن يتبنى النظام الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي؟ كيف تكون فكرة التكامل، والتعاون بديلا عن الصراع والربح، وللإسلام تجربة فذة في هذا الإطار حيث كان ربع الأملاك في العالم الإسلامي موقوفا على أعمال البر والخير مثلا.

إن هناك الآن عددا من النقاط التي يجب أن تحظى بالاهتمام والبحث: كيف نخرج من النظام العالمي؟ ونقيم بديلا ليس للمسلمين وحدهم وإنما من أجل العالم كله؟ كيف نحقق الوحدة؟ كيف نتقي ضربات النظام العالمي الشرير في مرحلة البداية؟ كيف تخرج من سيطرة هذا النظام على الغذاء؟ كيف نؤسس بحثا علميا هدفه نموذج آخر للتنمية هدفه الإنسان وليس الرفه والاستهلاك؟ كيف نضرب المفهوم الفلسفي الساعي للربح والتجارة والاستغلال والهيمنة؟ كيف سيكون وضع الأقليات؟ وصحيح أن الإسلام في تجربته السابقة كان الأكثر تسامحا إلا أن من حق تلك الأقليات أن تعرف وضعها في ظل الأيديولوجية الإسلامية. ما وضع المرأة التي كرمها الله وأعطاها الإسلام كل الحقوق، وما الضمان حتى لا تظهر نزعات متخلفة من داخل الفكر الإسلامي تجاه هذه القضية.

استخدمت الحضارة الغربية الشريرة ـ وما تمخض عنها من نظام عالمي ظالم واستعمار، وإمبريالية ـ عددًا من التكتيكات الاستعمارية في محاولة شل قوى المستضعفين واستمرار السيطرة عليهم، وكان العنف هو السمة السائدة والأهم في هذا الإطار، كان العنف لكسر صمود وقوة الذين هبوا للدفاع عن بلادهم،

وكـان القهـر والاسـتبداد السياسـي والظلـم الاقتصـادي، وكانـت السـجون والمعتقلات والمشانق نصيب كـل مـن يفكـر أن يتصـدى للاستكبار، وعمـلاء الاستكبار، كانت السمة الثانية بعد العنف والقهر هي التجزئة وضرب كل مقومات الوحدة والتوحيد. وإذا أخذنا العالم الإسلامي كمثال؛ فقد تمت تجزئة الدولة العثمانية إلى دول عدة، أما العرب فقد تمت بعثرة بلادهم إلى أجزاء كثيرة، وقد يتصور البعض أن ذلك حدث بسبب الصراع الفرنسي - البريطاني، حيث اقتسم كل منهما أجزاء خاصة به ولكن لو كان الأمر كذلك لأخذت التجزئة العربية الانشطار إلى جزئين كبيرين أو ثلاثة، بينما الذي حدث أن المناطق التي وقعت تحت سيطرة الاستعمار الواحد جزئت تجزيئا؛ فلبنان فصل عن سوريا وكلاهما تحت الانتداب الفرنسي، والأردن فصل عن فلسطين وفصل العراق على حده؛ وكذلك دول الخليج ومصر والسودان وكلها كانت تحت نفوذ الاستعمار البريطاني. واستهدف الاستعمار من التجزئة تحقيق الفصل الحضاري والثقافي وإضعاف تلك الدول وخلق مشاكل بينها تؤدي إلى صراعات لا نهاية لها، وهذا واضح مثلا في التقسيم بين لبنان وسوريا أو بين الأردن والسعودية أو بين المغرب والجزائر أو بين اليمن الشمالي والجنوبي أو بين تركيا وسوريا أو بين العراق وإيران، وفي كل الحالات أبقيت هنالك مطالب لهذا الجزء بأراضي الجزء الآخر أو المطالبة به كله باعتباره اقتطع من الإقليم المعنى، وانتهت خريطة التجزئة إلى ما ترى الآن أمام أعيننا من عشرات الدول؛ فالبلاد العربية وحدها جزئت ليقوم بها واحد وعشرون أو اثنان وعشرون كيانا، ولم يكن مخطط التجزئة ضمن ما حدث على أرض الواقع فقط، بل كانت هناك مخططات إضافية لم يستطع الاستعمار - لسبب أو لآخر - تنفيذها، فعلى سبيل المثال كانت خطة فرنسا تقضي بأن تجزأ سوريا إلى ثلاث دول أو أربع، وكانت هناك خطة لتقسيم المغرب إلى خمس دول على الأقل، وكذلك كانت الحال بالنسبة لشبه الجزيرة العربية، ولعل النموذج الأمثل الذي كان التفتيت يريد أن يذهب إليه هو ذلك التفتيت الذي نراه في الخليج

الآن، ويعلق الأستاذ منير شفيق في كتابه الهام « الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر » على هذه الأمور قائلا: « التمزيق شر ممزق، البعثرة إلى أشلاء متناثرة، التقطيع إربا إربا، هذا ما فعله الوحش الغاضب بفريسته التي طالما صارع للإيقاع بها وكانت تستعصي عليه، فأعد المخططات للانتقام منها والثأر لهزيمته الكبرى في الحروب الصليبية، إنها التجزئة المؤدية إلى إقامة الحدود الدولية فيما بين أجزاء الأمة الواحدة وسن قانون للجنسية في كل جزء تماما كما هي الحال فيما بين الدول القومية، وإقامة دولة من الطراز الغربي داخل كل جزء بحيث يصبح مع مضي الأيام جسما غريبا عن أشقائه وبحيث تتكون داخله مع الأيام أنظمة وقوانين خاصة به، وتنشأ فئات ذات مصلحة في بقاء الكيان وإدامته ويقوم الاقتصاد ـ ولو مشوها ـ على أساس الكيان باعتباره دولة قائمة بذاتها وتنشأ أفكار وعقلية ووطنية خاصة بالكيان ـ ويعبر شعب كل كيان تجربة تاريخية في الصراع مع الاستعمار بعيدا عن مسار أشقائه، وتنشأ زعاماته وأحزابه وجرائده وحركاته الخاصة به بعيدا عن مسار أشقائه، وبهذا لا يبقى فعل التجزئة عملا قسريا تفرضه حراب المستعمرين، وإنما يصبح واقعا تكوينيا موضوعيا له مؤسساته الموضوعية والذاتية وله بناه التحتية والفوقية وما إلى ذلك؛ وبهذا تنشأ دول ووطنيات وأمم يصبح أقصى الأمنيات معها أن تتضامن وتنسق فيما بينها، بل تصبح أقصى الأمنيات ألا يشتبك بعضها مع البعض في صراعات أو حروب، وبهذا تصبح الوحدة مستحيلة، ويصبح العجز مقيما وعندما نضيف إلى ذلك حتمية الصراعات فيما بين هذه الكيانات التي قامت بصورة مصطنعة سواء كانت صراعات على الحدود أو مواقع النفوذ أو الزعامة أو نوع التبعية للخارج، أو منافسات فيما بين أجزاء على أجزاء أخرى، ناهيك عن دور الدول الكبرى في التلاعب من خلال هذه الصراعات وناهيك عن طلب النجاة بالسلطة في الإقليم ولو على حساب مصالح الإقليم ذاته أو الأمة كلها، وكل جزء عليه أن يتدبر أموره ضمن معطياته البشرية والمادية والذاتية، فإذا بمن يملك القدرة البشرية فقير إلى المال ومن يملك المال

فقير إلى القدرة البشرية ومن يملك الإمكانات الاستراتيجية لا يملك الإمكانات المادية والبشرية التي تسمح له بالإفادة من إمكاناته.. أي يجب على كل شيء أن يسير عكس ما هو طبيعي ومعقول بالنسبة على أمة واحدة.

وبالإضافة إلى العنف والاستبداد والتجزئة قام الاستعمار بنشر التغريب الفكري والحضاري، وإذا كانت القوة العسكرية حققت للمستعمر إنزال الهزيمة العسكرية بالمستضعفين، وإذا كانت التجزئة أقامت لسيطرته أساسا موضوعيا ماديا فإن هذا وتلك ما كانتا لتجديا تمام ما لم تقع الهزيمة في العقول والنفوس والإرادة، وما لم تتجه الأفكار والثقافة والحضارة والمؤسسات داخل دولة التجزئة باتجاه تكريسها وتطلبت هذه وتلك القيام بمهمة مزدوجة تعبر عن سمتين أولاهما محاربة الإسلام وإبعاده عن العقول والنفوس والإرادة ونفيه عن الثقافة والحضارة والمؤسسات، وثانيتهما إعادة صياغة الأفكار والثقافة والحياة الحضارية والمؤسسات على أسس عربية بحيث تصبح مدار التفكير والفلسفة الغربية هي النماذج وهي الدليل لفكر الشعوب المستضعفة أو على الأقل بالنسبة إلى فكر قادتها وأهل الرأي فيها وبحيث تحل قيم الحضارة الأوروبية الغربية مكان القيم الحضارية الإسلامية فتتغير الأخلاق والعادات وتتغير أساليب الحياة في المأكل والملبس والمسكن والتربية على أساس الأخلاق والعادات والأنماط الحياتية الغربية وتقوم مؤسسات دولة التجزئة وجيشها وأمنها العام وحكومتها ومدارسها وجامعاتها وأجهزة إعلامها ومختلف وزاراتها ودستورها وقوانينها ومحاكمها على الأسس الغربية للدولة الحديثة ومؤسساتها وكذلك بالنسبة إلى لمؤسسات الخاصة الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية الأخرى، وفي هذا لمضمار نذكر قيام الاستعمار بإبعاد الشرع الحنيف واستبدال القوانين الغربية به إلغاء المنهاج الإسلامي من المدارس والتعليم وتحطيم كبريات الجامعات لإسلامية، إما بالإهمال وإما بعدم الاعتراف بشهاداتها وإما بدعم الجامعات

والمدارس ذات النمط الغربي، وعمدوا إلى الإنقاص من قدر العلماء والمثقفين الإسلاميين. إما من خلال الصمت والتجاهل وإما من خلال التهكم على ثقافتهم باتخاذ الثقافة الغربية معيارا للعلم والثقافة وعملوا على إبعادهم عن المراكز العامة بما في ذلك مراكز القضاء المدني والتدريس وأخذوا جامعيين متغربين مكانهم يطبقون القانون الوضعي والمناهج العلمانية ثم سعوا إلى وضع الأوقاف الإسلامية والمساجد تحت سلطة الدولة المتغربة حتى تتحكم بأرزاق العلماء والوعاظ وما تبقى من معاهد إسلامية، كما عمدوا إلى تشويه تاريخ الأمة الإسلامية بإبراز العناصر السلبية فيه، فكان ديدنهم طمس سيرة الخليفة العادل وإبراز السلطان الجائر وإخفاء صورة القائد المجاهد وإظهار صورة الماجن السفاح وحجب ذكر الإمام والعالم والقاضي التقي المستقيم لإشهار النوادر في سير المنافقين ووعاظ السلاطين، وأبعدت عن الأعين صورة المرأة المسلمة المجاهدة لتضخم صورة الجواري والقيان أو المرأة الخاملة: وغيبت الثورات الإسلامية وحركات الجهاد الإسلامي، كما عمدوا إلى تصفية الهوية الإسلامية من خلال العودة بالشعوب الإسلامية إلى تاريخ ما قبل الإسلام لإبراز الهوية الوثيقة واعتبار الإسلام غزوا واحتلالا، وهذا ما ركز عليه في إيران وتركيا أما بالنسبة إلى الغرب فقد ركز بصورة خاصة على الهروب من المرحلة الإسلامية في تاريخهم أو المرور بها مرورا سريعا ليركز على هوية إقليمية تعود في جذورها إلى تلك المراحل السابقة للإسلام: فرعونية ـ فينيقية ـ كنعانية ـ آشورية بابلية. وبهذا تصبح الأمة كتلاً بلا هوية، وتصبح لكل قطر هوية مزيفة لا تنفعه إلا وهو سائر على طريقة التجزئة والتراجع والعقم والعجز.

كما حاربوا الإسلام باستبعاد معاييره عن التداول عند بحث المشاكل أو القضايا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية، فهو غير معترف به أهلا للخوض في هذه المشاكل والقضايا وكذلك الحال بالنسبة لدور علماء المسلمين ومفكريهم وفلاسفتهم في التاريخ فقد أهمل ذكرهم في الغالب،

وطمست أعمالهم عند بحث تاريخ العلوم أو تاريخ القانون أو تاريخ العلم العسكري.

كما شنوا حملات الإرهاب الفكري ضد من يتمسك بالإسلام ويرفض التغريب والتبعية، هذا إذا لم يتعرض للتعذيب والنكال حين يكون مجاهدا بالقول والعمل ولعل من أبسط مظاهر ذلك تلك الإجراءات التي اتخذت ضد الحجاب واللحية في تركيا مثلا.

كما قاوموا اللغة العربية؛ تارة بإبعاد الفصحى وإحلال العامية واللهجات المحلية الإقليمية مكانها، وتارة بمحاولة استبدال الحروف اللاتيني بالحرف العربي وطورا يجعل اللغات الأجنبية لغات التدريس في الجامعات فضلا عن الحملات التي تنعت اللغة العربية بالعجز عن استيعاب العلوم وتقنيات العصر.

كما حاربوا الإسلام من داخله خصوصا حين كانوا يواجهون بصحوة إسلامية واسعة، فأحيانا شجعوا التجاهات التي تقدمه على صورة مشوهة تبعد أهله عن الجهاد ومواجهة التحديات أو تلك التي تقدمه بلا حدود أو تخوم فنجعله على وفاق مع العلمانية والتغريب، ونظرية فصل الدين عن الدولة، ووصل الأمر أحيانا بتسويغ موالاة أهل الكفر والشرك، أو بقبول بعض الاتجاهات بأن يستخدم الإسلام في محاربة هذا الطرف ضد ذاك من الأطراف المتصارعة في الغرب.

وإلى جانب العنف والاستبداد، والتجزئة والتغريب قام الاستعمار، بتحطيم المقومات الاقتصادية وبناء الاقتصاد التابع، ويقول الأستاذ منير شفيق في كتاب «الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر» عندما اجتاحت جيوس الغزاة الغربيين هذه البلاد، كان هنالك نظام اقتصادي كامل تجد عبر عشرات السنين له أصوله وتقاليده وقوانينه وله أنظمته بالنسبة إلى الملكية والإرث والبيع والشراء والتنمية والاستثمار وغير ذلك، وكانت بعض سماته اعتمادا على النفس واكتفاء ذاتيا وتعاونا جاعيا واستعدادًا للتنمية وتحقيق الازدهار، فجاء الغرب ليحطم كل البني

الاقتصادية القائمة، لا لأنها متخلفة ـ كما روج بعض الموتورين ومعهم بعض السذج ـ وإنما لتحطيم أسس اعتماد البلاد على ذاتها اقتصاديا ووضعها على طريق التبعية؛ فالملكيات العامة التي كانت تملكها القرى والجماعات والمشاعات عمل على إعادة تسجيلها لتحول إلى ملكيات إقطاعية والصناعات التي كانت تعتمد على السوق المحلية ويحطم الزراعة فشدد النكير على اللباس التقليدي وشن الهجوم على الزراعة المتوارثة القائمة على تلبية حاجة البلاد والسوق المحلية ليجعلها زراعة أحادية الجانب لتخدم صناعات وحاجات سوقه العالمية وعلى سبيل المثال القطن في مصر والعنب في الجزائر) وراحت اتجاهات التغريب تحتقر كل ما هو اقتصادي تقليدي وإنتاج محلي، وتصفه بالتخلف والتأخر وبيح تحطيمه تحت شعار أن الاقتصاد يجب أن يحدث ويعصَّر لتقوم الصناعة المتطورة وتحل الآلات والماكينات محل المحراث وأيدي الحرفيين، وصفق لهذا الاتجاه أصحاب النظريات المعتمدة على الماركسية تحت حجة أن ذلك يخلص البلاد من العقلية الفلاحية العشائرية المتخلفة في الريف والحرفية والإنتاج الصغير في المدن لتبدأ رحلة إدخال أدوات الإنتاج المتطورة وعلاقات الإنتاج الرأسمالية الحديثة فتنشأ في البلاد طبقة بروليتارية مما يسمح لاحقا بالثورة الاشتراكية بعد إنجاز الثورة الوطنية البرجوازية.

وهكذا تضافرت كل مدارس الغرب لتحطيم الاقتصاد التقليدي ووصفوه ـ باحتقار ـ بأنه اقتصاد الكفاف أو اقتصاد التخلف والانحطاط، وشجعوا كل ما هو مستورد غربي وأسهموا في تحطيم صناعة النسيج التقليدية بدلا من أن تظل لها سوقها الواسعة وذلك من خلال شنهم الحملات ضد اللباس الشعبي التقليدي مما ساعد على تحطيم فروع من الزراعة وتربية الحيوانات التي كانت تمد تلك الصناعات بحاجاتها وتعتمد عليها، وتحطمت الحرف وبعضها اندثر تقريبا وتم التخلي عن مواد البناء المحلية وضرب طراز البناء التقليدي وأصبح البناء على الطراز الغربي يحتاج إلى استيراد أكثر مواده وآلاته الضرورية من الخارج، وأدى

تشجيع التغيير في نمط الحياة إلى الاعتماد تدريجيا على كل ما هو مستورد من الخارج. وكل ذلك يدخل البلاد في خطة الاستعمار المباشر الذي أغرق الأسواق ببضائعه لتصبح له سوقا ينهبها « كالمنشار الطالع والنازل » كما يقول المثل وذلك عندما يستورد منها خاماتها ومنتجات الزراعة أحادية الجانب بأبخس الأثمان وعندما يعود عليها ببضائعه المصنوع ليبيعها بأعلى الأثمان.

أما ما هو أخطر من ذلك كله فقد قام الاقتصاد التحديثي على أسس التجزئة التي فرضها الاستعمار، فبدأت العلاقات الاقتصادية لكل جزء تضعف تدريجيا مع الأجزاء الأخرى لتنمو وتقوي مع البلد الاستعماري الذي أصبح يسمى البلد الأم، وبهذا اقترن التحديث بسمة التجزئة ليدخل الطريق المسدود ويزيد وضع الأمة وهنا على وهن(١).

إن وصف بعض السمات الاقتصادية للاستعمار ـ مثل الاحتكارات والشركات المتعددة الجنسيات وتصدير رؤوس الأموال واستيراد المواد الخام وإعادة اقتسام العالم فيما بين الدول الاستعمارية ـ لا جدوى حقيقية منه ما لم نفهم ونقدر خطورة السمة الأساسية وهي تحطيم المقومات الاقتصادية المستقلة وبناء مقومات الاقتصاد التابع بكل ما يعنيه ذلك من تحطيم لأنماط الحياة الإسلامية والحضارة الإسلامية والأسس التي أقامها المشروع الإسلامي في تنظيم العلاقات الاقتصادية، وإحلال التغريب الحضاري وأنماط الحياة المتغربة والقوانين الوضعية الرأسمالية مكانها ومن ثم رؤية ذلك باعتباره عملية سلبية تماما وخطوة كبرى إلى الخلف والتخلف، وسوف نلحظ أن الإخفاق في فهم جوهر المعركة مع الاستعمار في المجال الاقتصادي وعدم ربطها بالحرب الحضارية الشاملة ككل التي شنها ضد الأمة قد أدى إلى إخفاق المحاولات التي هدفت إلى وقف النهب الاستعماري أو ضرب الاحتكارات، أو بكلمة أخرى أن إنجاز تلك المهمة

---

(١) اللورد اللنبي.

المزدوجة لم ينقل البلاد إلى الاستقلال الاقتصادي والتصنيع والازدهار ولم يرس حتى أسسا لذلك، بل كان إرساء لأسس التبعية والإلحاق وتحديدًا لاتجاهات المستقبل ضمن هذا الإطار، وكان ثمرة طبيعية للموقف النظري الخاطئ. الذي بارك عملية تحطيم بني الاقتصاد التقليدي بلا تفكر ولا تدبر، ومضى يدفع بطريق زرع بني اقتصادية من النمط الغربي مكانه، ولهذا فإن الفهم المتغرب لسمات الاستعمار والإمبريالية، أو سمات طبيعة الصراع فهم سطحي غير صحيح، لأنه لم يمس الجوهر ولم يضرب الجذور ولم يوضع ضمن الإطار الشامل للصراع أو بكلمة أخرى كان فهما وهميا غير علمي يبنى على موضوعات مغلوطة فتلك العملية لم تكن ـ كما توحي تلك الموضوعات ـ تؤدي إلى إرساء أسس لتطور لاحق نحو مجتمع رأسمالي من الطراز الذي عرفه الغرب، ولا نحو ثورة برجوازية وطنية، وإنما كان عملية وضع أسس لحالة قد حكمت في تطورها اللاحق بحتمية الإيغال في التبعية والإلحاق، وهذا ما أثبتته الوقائع اللاحقة، فعندما تظهر في تلك الحالة جوانب ذات طابع رأسمالي فمن الخطأ التصور أنها بذور سوف تنطوي لنظام رأسمالي كما حدث في أوروبا، الأمر الذي يفترض أن ترى ضمن إطار التبعية باعتبارها نمطا اقتصاديا خاصا تولد عن الحالة الاستعمارية والتغريب والتجزئة ولا يحمل في داخله إلا اتجاها نحو المزيد من الارتباط بالخارج والاعتماد عليه والتبعية له، أما نقضه فلا يأتي إلا من خارج إطاره، أي من الحالة الشعبية القادرة على بناء نسق اقتصادي ضمن إطار حضاري مختلف جذريا.

* * *

إن التأمل العميق لتلك السمات منفردة ومجتمعة يفترض أن نعرف كيف نخوض حربنا الشاملة مع النظام العالمي الشرير، فإدراك سمة العنف يفترض أن تعد الأمة عدتها وتتهيأ لمواجهة هذا العنف ولا يتأتى ذلك إلا « بالجهاد »؛ أي تعبئة كل البشر للقتال الشعبي المستمر طويل المدى: الإنسان المجاهد في مواجهة الجيوش الغربية المنظمة. وإدراك سمة التجزئة وتكريس دول التجزئة

ومؤسساتها يفترض أن يتجه المسار اتجاها وحدويا لا اتجاها يحفر في الأخاديد نفسها التي حفرها الاستعمار، وإدراك عملية التغريب وأهدافها ووسائلها يفترض ألا يكون المسار أيضا لا في التغريب والمزيد من هجر الإسلام ـ وكذلك الأمر في فهم سمة تحطيم البني والمقومات الاقتصادية الأصلية التي قامت في بلادنا وإحلال بني ومقومات اقتصادية متغربة تقوم على أساس التجزئة وتتجه إلى مزيد من الإلحاق والتبعية مما يفترض وقف الانجراف وراء هذا التيار ـ بل إلى بناء اقتصاد مستقل وغير تابع ومقطوع الصلة تماما بالنظام العالمي الشرير ومعتمد على البني الذاتية إنتاجا وتسويقا.

***

القطع بفشل التغريب

قامت الحضارة الغربية على العنف والنهب، ومنذ ما يسمى بعصر النهضة ـ وهو الأساس الأول للحضارة الغربية المعاصرة ـ وحتى الآن فإن آلية العنف والقهر لم تتوقف، بل تطورت مع النهب والسب. ووجدت تطبيقاتها المباشرة وغير المباشرة في التسليح والاستعمار، وأدى التسليح والتكنولوجيا والاستعمار إلى تراكم الثروات في العالم الغربي الذي أدى بدوره إلى ظهور الرأسمالية ـ التي أدت بدورها إلى مزيد من العنف والنهب.

وأدى هذا إلى أن القيم والنظم والأفكار والمعايير والعادات والأخلاق أصبحت بدورها خاضعة لقانون العنف والنهب. بل أن الثروات والتغيرات الاجتماعية والإصلاحية التي شهدتها الحضارة الغربية جاءت لإحداث دفعات جديدة في بنية القهر والعنف والنهب وليس إلى تخليص الحضارة الغربية من ذلك.

وفي رحاب الحضارة الغربية تصاعدت الاتجاهات العنصرية والمظالم الاجتماعية والطبقية وتحكم الاحتكارات واستبداد وتسلط الدولة وارتفاع

مضطرد في نسب الجريمة وإدمان الخمور والمخدرات والانحرافات الاجتماعية والأخلاقية والشذوذ الجنسي، مما يقطع بأن الحضارة الغربية تقود العالم إلى هاوية سخيفة وها هو « جيسكار ديستان » أحد قيادات هذه الحضارة يصرح من هول ما يحس به ويراه « أن العالم تعيس وهو تعيس لأنه لا يعرف مصيره ـ ولو عرف مصيره لاكتشف أنه سائر نحو كارثة ».

إذن العلة في الحضارة الغربية تكمن في الأساسات والجوهر وليس في هذا الفرع أو ذلك من فروع الشجرة ، وبالتالي فالحضارة الغربية ذاتها بحاجة إلى أن تذهب إلى مزبلة التاريخ لأنها حضارة ظالمة قامت على العنف والنهب ومضت في كل يوم لمزيد من هذا الظلم والعنف والنهب ولم ترق بعلاقات الإنسان بالإنسان أو الرجل بالمرأة أو الحاكم بالمحكوم أو الغني والفقير أو القوى والضعيف، أو الأسود والأبيض أو الإنسان والبيئة، بل قدمت أحط وأقذر النماذج لهذا كله.

ولا يمكن لحضارة هذه بعض ثمارها أو حضارة قامت في ظل نسق تاريخي خاص وترعرعت في ظل السيطرة على العالم ونهبه أن تكون نموذجا قابلا للاحتواء.

إن عملية نقل هذا النموذج أو بعضه إلى أمة الإسلام لا ينتج عنه إلا المزيد من التبعية والعجز والشلل بل ويؤدي إلى ضياع فرصة حقيقية لخلاص البشرية من خلال صعود حضارة الحق والقوة والحرية حضارة الإسلام.

إنه من خلال الوقائع المتاحة وهي وقائع لا تكذب، فإننا يمكن أن نقرر في حزم أنه لا نهضة في بلادنا بدون الإسلام، ولا خلاص للبشرية إلا بالإسلام.

إن علينا أن ندرك أن السير على طريق التغريب يقود إلى العقم والهزيمة، والانحطاط، وأن على المتغربين من بيننا أن يواجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة، ويضعوا حدا لعبثية الانصياع وراء حضارة الغرب وثقافته وأن يفتحوا عيونهم على الإسلام علهم يجدون السبيل إلى نهضة الأمم وإلى إنقاذ العالم كله من براثن

الهاوية، وإن من لا يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة منهم بعد كل هـذه التجـارب والمآسي والوقائع وانفضاح الفكر والمتغـرب وانكشـافاته في سياسـاته وبرامجـه ومشاريع حكمه فهو لا يريد لهذه الحالة تغييـرا ولا يريـد للأمـة أن تـتخلص مـن حالة الانحطاط ولا يريد للعالم أن يكتشف الطريق الصحيح للنجاة[١].

❊ ❊ ❊

هل يمكننا أن نقع في وهم انتهاء الحقبة الاسـتعمارية بعـد أن حصـلت معظـم الدول على استقلالها وأصبح لهم علم ونشيد وجيش وشرطة؟ ولمعرفـة حقيقيـة مثل هذا الأمر ينبغي لنا أن نعرف ماذا كان يريد الاستعمار مـن وجـود جيوشـه في بلدان العالم؟ ألم يكن يريد النهـب والتجزئـة وزرع أنمـاط حضـارته. وكـان يقتـل ويسرق ويزرع الفتن ويحارب كل ما هو وطني وأصيل ألم يكن ذلـك يـتم بطريقـة مباشرة كانـت تسـتفز القـوى الكامنـة في الشـعوب لتقاومهـا، ألم تكـن المقاومـة واستمرارها كفيلة باستنهاض الأمة واستعادة إيجابيتهـا وحيويتـه والـتخلص مـن الصدأ الذي طرأ على نفوس أبنائها ووجدانهم. ألم تكـن تلـك المقاومـة تسـتفز في الأمة بحثها عن جذورها والتمسك بها ورفض كـل مـا هـو اسـتعماري؟ ألم تكـن المقاومة تؤكد روح الوحدة حيث أن العدو واحد والأهداف واحدة.

إذا كان لا بد للاستعمار أن يطور وسائله فبدلا من تكاليف الاحتلال المباشـر وما يمثله من استفزاز وما يزرعه من روح للمقاومة ابتكر الاستعمار شكلا جديـدا وخبيثا كان الاستعمار المباشر مثلا يفرض التجزئة، وكانت الشـعوب في المقابـل تحلم بالوحدة وترى التجزئة عملا مفروضا من جيوش الاحتلال. فلماذا لا يرحل الاستعمار ويزرع التجزئة، ولكن على يد السلطات المحلية؟ أي أن تقوم كل دولة بإعلان دستور خاص بها ونشيد وعلم وطني وتخطط الحـدود وتصـدر جـوازات

(١) مجلة الطليعة اللندنية ـ ١٩٨٤.

السفر التي تحدد جنسية المواطنين، أي أن تصبح التجزئة شجرة يسقيها الاستقلال ويرعاها أي أن نوغل بأقدامنا في نفس الوحل الذي أراده لنا الاستعمار ولكن بإرادتنا وهتافاتنا هذه المرة.

وإذا كان الاستعمار المباشر يريد أن تحيا وفقد نموذج سياسي واقتصادي واجتماعي محدد يحقق له أهدافه، فلماذا لا ترحل جيوشه وتقوم بتلك المهمة السلطات المحلية التي تقوم بمهمة بناء جهاز الدولة المستقلة الإداري والسياسي والقانوني وفق نظم الاستعمار وتحت شعارات « العنصرية ».

وإذن فإن الاستعمار يريد أن يقطع الأمة عن جذورها لتصبح قشة في مهب الريح، فلماذا لا تقوم بذلك أحزاب ومؤسسات ومفكرون، مؤسسات ترفع علم الوطن وتحكم وتعارض وفق أيديولوجيات الغرب ونظمه ونسقه الحضاري؟

وإذا كان النهب هو ديدن الاستعمار وهدفه، فبدلا من أن تقوم جيوش الاحتلال بذلك، تقوم به مؤسسات الاقتصاد الدولي من بنك دولي وصندوق نقد دولي وتصدير واستيراد وبناء صناعة وطنية بالمقاييس والأحجام التي تكرس التبعية.

وفي كل الأحوال فإن النهب والتغريب والتجزئة تتحقق جميعها بقليل من الحبكات السياسية الدولية ونظم التجارة الدولية فإذا ما حاولت دولة ما أن تتخطى تلك النظم أو تسعى نحو الوحدة والاستقلال وقطع خيوط التبعية أو بناء الاقتصاد غير التابع فإن جيوش الاستعمار جاهزة للعودة فورا في مهمة مجددة تؤديها ثم ترحل ولعل دروس أفغانستان وفيتنام ومشاة الأسطول الأمريكي في لبنان أو الأردن أو غيرها أبلغ دليل على هذا.

إذن فالسمات الاستعمارية هي العنف ـ النهب ـ التغريب ـ التجزئة، ولكن يقوم بتحقيقها مؤسسات محلية في الحكم أو في المعارضة أو في هيئات الاقتصاد

الدولية، وقوانين التجارة والاحتكارات، وكل هذا بدلا من الجيوش التي تستفز بوجودها روح المقاومة في الشعوب.

***

زرع الكيان الصهيوني:

في خرائط الفاتيكان منذ ما قبل القرن السادس عشر، كان الخرائط التي تمثل العالم ترسم على شكل ثلاث دوائر بيضاوية تتصل أعناقها الثلاثة بحلقة هي «القدس» أي أن فلسطين تشكل النقطة المركزية الاستراتيجية التي تمسك بخناق التقاطع الاستراتيجي بين قارات العالم، أي أن الاستيلاء والسيطرة على العالم في أية استراتيجية كونية يتطلب الاستيلاء على المنطقة العربية الإسلامية، وتقع فلسطين في القلب منها، لأن السيطرة على تلك المنطقة هي الأساس الوحيد للسيطرة على العالم بحكم موقعها الاستراتيجي وبحكم كون شعوبها المسلمة تمثل التحدي الحضاري الحقيقي «بالإسلام» لمواجهة الحضارة الغربية.

وكان نابليون في أواخر القرن الثامن عشر يحمل مشروعًا يرمي إلى زرع اليهود في فلسطين وإقامة قاعدة تشكل امتدادا لأوروبا هناك. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر استعدت الحلقات الاستعمارية لإقامة قاعدة بشرية عسكرية معادية معاداة مطلقة للمسلمين في فلسطين، وأعلنت بريطانيا رسميا ـ باعتبارها أقوى الدول الاستعمارية ـ «وعد بلفور» سنة ١٩١٧ والتزامها بإقامة هذه القاعدة تحت اسم «إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين».

أي أن الهدف الاستعماري الذي خطط له الفاتيكان، ونابليون ثم انجلترا؛ أي كل الغرب الاستعماري؛ كان السيطرة على هذه العقدة الخطيرة بقوة الجيش وبقوة سكان مجتمع ودولة ومن ثم يقوم كيان معاد عداء كاملا للمنطقة ويجيء امتدادا حضاريا وبشريا وعضويا لليهودية العالمية وللغرب نفسه في آن واحد.. وكان

الهدف من زرع هذا الكيان بهذه الكيفية هو:

- منع وحدة الأمة الإسلامية التي تشكل الخطر المركزي بشريا وحضاريا وجغرافيا على العرب.

- شل دور المسلمين في المنطقة ومنع أي محاولة لنهوضهم.

- إدامة التجزئة وتكريسها باستخدام العنف « الهراوة الصهيونية » التي سوف تستخدم ضد كل من يحاول أن يمكر في الوحدة أو رفض التغريب أو إقامة اقتصاد مستقل وغير تابع.

- إذن فالصراع على أرض فلسطين هو صراع أمة ضد الحضارة الغربية.. هو صراع كل مسلم وكل مستضعف على وجه الأرض ضد الاستكبار العالمي.

- إنه من البديهي والحالة هذه أن النظام العالمي الحالي لن يسمح بتحرير فلسطين بأي شكل من الأشكال. وبالتالي فإن تحريرها يتطلب مواجهة شاملة ضد قوى الاستكبار والهيمنة في العالم وليس باللعب على تناقضات بعضها مع البعض الآخر.

* * *

(٤)

المنهج الحركي من خلال تجربتي

النبي عيسى ابن مريم

والنبي يحيى بن زكريا عليهما السلام



لاشك أن سيرة الأنبياء والرسل تمثل ذخيرة حية ونابضة ومفعمة بالتجارب لكل حركة دعوة أو إصلاح أو تغيير منشود ، وهكذا لم يكن حرص القرآن الكريم على إثبات وتحليل هذه التجارب وغيرها الا دعوة للتأمل فى تلك التجارب بهدف الاستفادة منها ، والتأمل كذلك فى الأمراض والأعراض التى تلحق بالأمم والجماعات فتقودها إلى طريق الهلاك حتى نتجنبها.

ولاشك أيضاً أن المساحة الواسعة فى القرآن الكريم التى تناولت بنى إسرائيل – من حيث فسادهم الدينى والأخلاقى – ومن حيث تجارب الأنبياء معهم ، وبهم مع غيرهم من الأمم ، لم تكن عبثاً ، ذلك أنها مقصودة بالطبع لأن من الممكن أن تلحق بنا كأمة إسلامية ورثت الكتاب والنبوة والرسالة ، وورثت دور الشاهد على الناس إلى يوم القيامة ، يمكن أن تلحق بنا هذه الأمراض ، وبالتالى فيجب معرفتها لتجنبها وكذا بالنسبة لطليعة الأمة « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أن يفهموا مسيرة الأنبياء للاستفادة منها فى مجال الدعوة والإصلاح والتغيير .

ولاشك كذلك ، فى أن للتجارب خصوصيتها زماناً ومكاناً ، وأنه من غير الصحيح التقليد الهندسى للتجارب السابقة ، ولكن الاستفادة منها كمنهج متكامل تتغير طريقة تركيبه على الواقع فى كل مرحلة ومهما كانت درجة التشابه بين حالة نمر بها وبين تجربة سابقة لأمة أو نبى فإن من الضرورى إدراك استحالة الانطباق الهندسى بين حالتين مهما بلغت درجة التشابه وهذا لا يمنع بالطبع من الاستفادة من تلك التجارب ، بل يؤكد على ضرورة هذه الاستفادة مع إدراك أهمية الإبداع والتجديد فى الفهم والممارسة ومواجهة المستجدات .

وتمثل حياة الأنبياء وأحوال الأمم التى ظهروا فيها – كل – أنواع وأشكال طرق الإصلاح الدينى والاجتماعى والأخلاقى والسياسى والاقتصادى .. وكذا تمثل أوضاع الأمم التى ظهروا فيها مختلف أنواع الفساد والأعراف والزيغ والأمراض الاجتماعية والدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية .

فهناك من الأنبياء من بدأ مع مجتمع مسلم ، أى كان المطلوب فقط المحافظة على حالته الصحيحة ثم حدث انحراف فى فرد أو أفراد مثل آدم وأولاده الأوائل .. وهناك من واجه مجتمعاً كافراً أخذ يدعوه دون جدوى – اللهم إلا القليل الذى آمن معه مثل نوح وغيره ، ومنهم من واجه إلى جانب الكفر انحراف أخلاقى مثل لوط ، ومنهم من بدأ تأسيس أمة – تكون شاهدة على الناس – مثل إبراهيم ، ومنهم من واجه إلى جانب الكفر الظلم الاقتصادى مثل شعيب ، ومنهم من واجه أمة لديها الدين الصحيح والرسالة والكتاب ولكنهم انحرفوا قليلاً أو كثيراً مثل أنبياء بنى إسرائيل أو واجهت عدوا يريد البطش بها مثل أنبياء بنى إسرائيل أيضاً – داود مثلاً . ومنهم من وجد نفسه فى مجتمعنا لا ينتسب إليه ، وكان مطلوباً منه أن يعايشه ويصلحه من داخله فاستخدم أساليب شتى ووصل إلى وظائف عليا فى ذلك المجتمع دون أن يتخلى عن رسالته مثل يوسف ، الذى تصلح تجربته نموذجاً للمسلم الذى يعيش فى إحدى الدول الأوروبية مثلاً فى هذا العصر – مع الفوارق طبعاً ، من الرسل من انتصر ومنهم من انهزم ، من مات ومن قتل ، وهكذا يتشكل لنا فى النهاية أوسع تجربة نستفيد بها فى كل حالة وأى حالة .

ومن الرسل من كان مثل محمد ﷺ الذى أكمل الله به الدين ونقل إليه وإلى أمته من بعده – بعد أن فقدت بنى إسرائيل مقومات استمرارها بسبب فسادها وعنادها – نقل إليه وإلى أمنه من بعده واجب الرسالة إلى الناس جميعاً ، « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم » وبالطبع فإن العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح والإسلام الكامل شريعة وعقيدة وممارسة تم على يد محمد ﷺ لأنه خاتم الرسل ، والاستفادة من تجربة الرسول محمد ﷺ واجب بالطبع ، خاصة أنها تجربة ممتدة من دعوة للكافرين ، إلى إقامة مجتمع للمسلمين فى المدينة مع وجود أقليات تعايش معها فى البداية مثل المشركين واليهود فى المدينة، إلى الصراعات بين دولة الرسول والقوى المشركة فى الجزيرة العربية ، إنها تجربة تجمع بين تجارب دعوة الكافرين إلى تجارب إقامة مجتمع للمسلمين ،

إلى تجارب مواجهة المنافقين ، إلى تجارب معايشة المشركين واليهود – وثيقة المدينة نظمت تلك العلاقات – إلى تجارب صراع الدولة المسلمة مع غيرها من القوى .. الخ.

وهناك تجارب الرجال الصالحين ، مثل الخضر عليه السلام ، الذى خرق السفينة ليبيعها – فعلمنا أن نخفى علامات قوتنا عن أعين الظالمين ولعل هذه التجربة لازمة لنا فى أحوالنا المعاصرة ، حيث كلما ظهرت قوة حركات الإصلاح وحدث نوع من استعراض هذه القوة فى نقابة أو انتخابات أو موقع اجتماعى أو خدمى كان هذا دعوة للظالمين للبطش بها وتصفيتها ومصادرتها .

***

وسوف نختار فى هذه الدراسة ، تجربة هى أقرب التجارب شبها بنا – دون إغفال المتغيرات الطبيعية بالضرورة ، وهى تجربة دعوة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فى بنى إسرائيل وكذا تجربة نبى معاصر له هو النبى يحيى عليه السلام .

وأوجه الشبه كبيرة جداً بين حالتنا المعاصرة وحالة نبى الله عيسى ابن مريم فى بنى إسرائيل. أو قل هى أكثر التجارب شبهاً لأحوالنا المعاصرة .. فوجب الاهتمام بها ودراستها والاستفادة منها .

وأول أوجه الشبه تلك هى أن نبى الله عيسى جاء إلى بنى إسرائيل لإصلاحها من داخلها ولم يكن صاحب دعوة إلى غيرها من الأمم أساساً وهو لم يأت لنقض شريعة موسى ، أو تغيير دين اليهود ، بل جاء ليكمل النا موس ويؤكد على المعانى الصحيحة والفهم الصحيح والممارسة الصحيحة .

يقول المسيح عن نفسه فى الإصحاح الخامس: « لا تظنوا أننى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقص بل لأكمل .. » وقوله: « على كرسى موسى جلس ا لكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ،

ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » .

أى أنه يقر النص والوصايا والمرجعية النظرية .. ولكنه جاء لإعادة روح الممارسة وروح الفهم الصحيح للنص والمرجعية والمنهج ، وكونه فقط مرسل لإصلاح بنى إسرائيل مثل قوله: « إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » الإصحاح العاشر . وقوله: « لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة » الإصحاح الخامس عشر .

نحن إذن أمام أمة مكلفة برسالة .. ولم تفقد مرجعيتها النظرية مثل حالتنا الآن ، ولكنها افتقدت روح المنهج والفهم والممارسة ، وفقدت الكثير من الشروط التى تكفل لها الاستمرار على هذه المهمة ، فكان المطلوب استعادة المضامين والشروط وروح المنهج والممارسة لدى هذه الأمة حتى لا تفقد مبررات وشروط استمرارها كأمة رسالية ، وهذا ما هو مطلوب منا الآن وعلى علمائنا – الذين هم كأنبياء بنى إسرائيل – القيام به .

ولاشك أن الرسالة لا تورث بالجنسية أو العصبية أو القومية بل بامتلاك شروط معينة والعمل شكلاً ومضموناً بمقتضاها ، وإذا كانت بنى إسرائيل قد فقدت هذا الشرف بعد أن فقدت شروطه وآل الأمر إلى أمة الإسلام فنرجوا ألا نفتقده بدورنا لافتقادنا شروطه !

***

ومن أوجه التشابه أيضاً •• وجود الظروف الموضوعية والذاتية شديدة التشابه بيننا وبين تلك التجربة ، فالأمة اليهودية فى ذلك الوقت كانت أمة محكومة بالأجانب .. أى خاضعة لسيادة خارجية هى الدولة الرومانية .. ونحن بدورنا خاضعين للنفوذ الغربى ، والدولة الرومانية فى ذلك العصر كانت قد بلغت أوج قوتها ودخل فى حوزتها العالم المعمور كله ما عدا الشرق الأقصى ، مثل أمريكا الآن التى تهيمن على العالم فيما يعرف بعصر القطب الواحد أو النظام العالمى

الجديد .

وكانت الفلسفات والأفكار ذات طابع عالمى وكذلك العقائد والمذاهب بمعنى أن الحياة الفكرية من الهند إلى الأطلسى مروراً بالإسكندرية ونابلس وروما كانت شديدة الترابط والاتصال . وهذا هو حالنا الآن مع إدراك الفارق الكمى – وليس النوعى – فى سرعة الاتصال حالياً . بل حتى قبل ظهور المسيح بقليل ، إبان الصراع بين الفرس والروم ، الذى يشبه الصراع بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا ، والذى انتهى أيامها لصالح الرومان وانتهى حالياً لصالح أمريكا، ويمكن أيضاً أن نشبهه بالصراع بين أمريكا وأوروبا أو أمريكا وفرنسا ، أو أمريكا والصين ..الخ ، كان هذا الصراع يجد له أنصاراً داخل أمة اليهود ، فهناك من ينحاز إلى الرومان وهناك من ينحاز إلى الفرس !! مثل حالتنا بالضبط .

إذن فهناك أشياع واتباع سياسيون لهذه القوة أو تلك داخل أمة اليهود فى ذلك الوقت ، وكذلك هناك الكثيرين ممن تأثروا بالفلسفات المختلفة ، من خارج إطار أمة اليهود – فهناك من تأثر بالفلسفة الفيثاغورثية أو الفلسفة الأبيقورية أو الفلسفة الرواقية ، كحالتنا فى التأثر بالمذاهب السياسية أو الفلسفية المختلفة من رأسمالية واشتراكية ديمقراطية ، وماركسية أو من تأثر بالبراجماتية ، أو المادية المثالية ، أو الوصفية المنطقية ، أو البنائية أو فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة .. الخ .

وبالطبع انتشرت بين اليهود خاصة الطبقة الأرستقراطية المرتبطة بالنفوذ الرومانى ، أنماط وأذواق الملبس والمأكل والآداب الرومانية وطرق الحياة والثقافة والألعاب وغيرها ، وهكذا فنحن أمام حالة أمة خاضعة لنفوذ سياسى وعسكرى أجنبى ، مخترقة ثقافية مستلبة حضارياً تجاه الأجنبى ، أليست هذه هي حالتنا بالضبط ؟!

***

وحتى على المستوى العام إقليمياً وعالمياً ، فإن الحالة كانت شبيهة بما نعيشه الآن ، فقد كان معظم العالم المعروف فى ذلك الوقت خاضع سياسياً وعسكرياً ومنهوب إقتصادياً للدولة الرومانية ، وكان هناك سوء توزيع مروع للثروة ، فكان هناك ثروة وترف وطغيان من ناحية وفقر وضنك وهوان من ناحية أخرى ، كان هناك بذخ وترف ولهو من جانب السادة ونقمة من جانب العبيد والمسخرين ويصف المسيح نفسه أحوال العالم فى تلك الفترة ، التى ضاعت فيها المعايير والقيم والعدالة والحرية وتسلط فيها السادة الرومان على الناس بقوله: « أن للثعالب جحور وللطيور أوكاراً ، أما ابن الإنسان فليس له شيء يسند رأسه » ، أليس هذا هو حال عالمنا المعاصر بالضبط الذى تستبد به القوى الكبرى وتنهبه ، وبحيث ضاعت فيه الحقوق تماماً وظهر فيه ازدواج المعايير بحيث لم يعد لابن الإنسان قوة تسنده ، أليس الفقر والجوع والموت والحروب الأهلية وغيرها مما نعيشه الآن تحت ظل الهيمنة الأمريكية ، هو نفسه ما كان يحدث فى العالم أيام المسيح .

وفى فلسطين ذاتها ، ألا تخبرنا الأناجيل ، عن آلاف الجوعى والمرضى والعجزة والمجانين والصم والعمى والخرس الذين جاءوا للمسيح طلباً للشفاء .. ألا يدل هذا على الحالة المتردية للناس أيامها مثل الصور التي نراها حالياً للجوعي يتدافعون للحصول على شيء من معونات الأمم المتحدة !!

بل حتى على مستوى تمزيق الدول وإثارة الحروب الطائفية والعرقية والصراعات بين الكيانات السياسية المختلفة كان الأمر متشابهاً ففى فلسطين مثلاً كانت هناك ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها ، ويعلق العقاد فى كتابه حياة المسيح على ذلك قائلاً فى صـ٤٤ : «وقصدت روما بهذا التمزيق أن تخيف كل ولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم فى مرضاتها وتتخذهم جميعاً درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين » .

***

وبالإضافة إلى تلك الحالة المماثلة لنا إقليمياً ودولياً ، فإنه من ناحية الفساد والانحراف والأمراض الاجتماعية التى تفشت فى اليهود فى ذلك الوقت من حب للجدل بلا طائل ، والتمسك بالشكل على حساب الجوهر ، واستخدام بعض رجال الدين لتبرير تصرفات الحاكم الأجنبى ، وإعطاء غطاء شرعى لكل الممارسات الفاسدة أخلاقياً واقتصادياً والتخلى عن شروط الأمة المختارة ، فإننا نتشابه فى ذلك معهم فى كثير من الأمور ، ويصف المسيح هذه الحالة بقوله « أنهم حولوا الهيكل من مكان صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص » .

***

إذن فنحن أمام تجربة ، هى أقرب التجارب إلى حالتنا الراهنة ، من حيث التشابه فى وجود أمة منوط بها رسالة فقدت شروط رسالتها وضربت فيها الأمراض والانحرافات ، وإلى خضوع هذه الأمة للنفوذ الأجنبى ، وإلى وجود أحوال إقليمية وعالمية متشابهة ، وبالطبع فإن التشابه لا يصل إلى حد الانطباق الهندسى من ناحية ، فهناك فروق وملاحظات يجب إدراكها وكذلك من البديهى أن الاستفادة من كل التجارب النبوية وغير النبوية وارد بالطبع ، ومن الملاحظات والفروق مثلاً :

– أن فساد وانحراف بنى إسرائيل وصل إلى حد كبير بحيث تعدوا شروط الأمة المختارة ، وهذا لا يمنع بالطبع وجود عدد قليل منهم كان لايزال يتمسك فكرا وممارسة بالدين الصحيح ويدل على هذا قول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وقوله ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فهناك داخل أمة اليهود المنحرفة – فى تيارها العام والرئيسى – الصالحين من أمثال آل عمران وعيسى نفسه ، ولكن هؤلاء الصالحين ليسوا إلا قلة تؤكد القاعدة ، أما حالتنا الإسلامية الراهنة فنرى أن هناك انحرافات كبيرة ، إلا أن المجرى الرئيسى لايزال صحيحاً وليس قلة من الأفراد فقط ، وهذا معناه أن فقدان بنى إسرائيل لصفة الأمة

المختارة لفقدانها شروطها ، لم يحدث لنا – ونسأل الله ألا يحدث لنا فمازلنا – رغم الانحرافات والأمراض الخطيرة .

نحمل فى التوجه العام الشروط أو معظمها التى تؤهلنا لصفة الشاهد على الناس والقيام بواجبات الأمة المختارة ورسالتها ، ويجب ألا تخدعنا هذه الحقيقة أيضاً عن ضرورة المسارعة فى الإصلاح .

– أنه كان فى بنى إسرائيل جماعات فكرية وعقيدية مثل الصدوقيين والفريسيين والسامريين وخليط من اليهود والآشوريين والغلاة وغيرهم وبالطبع كانت هذه الجماعات أو الطوائف تحمل أفكاراً فيها الصحيح و الخاطىء ، وكذلك لدينا الآن أمثال هذه الطوائف والجماعات ، وبالطبع ليس هنا مجال تقييم أو دراسة هذه أو تلك بل يهمنا دراسة الظاهرة فى مجراها الرئيسى .

– إنه فى حالة أمة اليهود ، فإنها كانت محدودة من حيث العدد ، والاتساع الجغرافى ، فى حين أن الأمة الإسلامية كثيرة العدد الآن « حوالى ١٥٠٠ مليون نسمة » وممتدة من طنجة حتى جاكرتا ومن سراييفوا حتى جنوب أفريقيا ، بل وموجود فى كل مكان على وجه الأرض ، وهذا فارق نوعى هام ينبغي أخذه فى الاعتبار .

***

لدينا فى عصر النبى عيسى ابن مريم تجارب هامة فى مواجهة هذا كله ينبغى دراستها والاستفادة منها ، لأنه كرسول مبلغ عن الله تعالى استخدم أسلوباً مشروعا يمكن القياس عليه من ناحية ويمكن فهمه مجملاً كمنهج ربانى فى مواجهة مثل هذه الحالة التى واجهها أو شبيها بها أو الاستفادة من جزئيات هذه التجارب وملامحها التفصيلية .

ولكن قبل البدء فى الاقتراب من تجربة وخطاب وأسلوب نبى الله عيسى ابن

مريم ، لدينا تجربة معاصرة لها ، أى أنها واجهت نفس الظروف .. إنها تجربة يوحنا المعمدان أو النبى يحيى عليه السلام ، وهو ابنة خالة المسيح وفى نفس سنه تقريباً وعاش فى نفس الفترة وواجه نفس الأوضاع والقوى ، ركز يحيى عليه السلام على جانب الحب .. حب الإنسان أى إنسان تقياً أو عاصياً صالحاً أو طالحاً ، حتى ولو كان يملأ الأرض بذنوبه وضعفه الإنسانى ، ولكنه كان يرفض مسايرة الظلم ، أى ظلم من أى نوع ، كان يحيى شديد الحنان بوالديه وبالناس والمخلوقات والطيور والحيوانات والأشجار ، أى أنه استخدم الأسلوب «الإنسانى» فى دعوته ، وهذه الجوانب الإنسانية – للأسف غائبة فى الحركة الإسلامية المعاصرة وبخاصة المتشددين المشهورين بالقسوة الشديدة !! ظناً منهم أن هذا تمسكا بالشريعة ، والصحيح أنه على العكس تماماً ، لأن يحيى كان من أكثر الأنبياء والرسل تمسكاً بالشريعة وبالكتاب والله تعالى يقول عنه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ ، ولكن أهم ما نتعلمه من يحيى هو أنه كان رقيق الحاشية ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ ، كان يخاطب الجانب الإنسانى فى الناس ، كان إذا تكلم أبكى الناس من الحب والخشوع وأثر فى قلوبهم قبل عقولهم وهذا بالطبع كان لازماً لمواجهة المادية التى طغت على كل شىء ، والقسوة التى صبغت كل شىء فى ذلك الوقت .

أما موقفه من المؤسسة الحاكمة ، أى من الحاكم التابع للدولة الرومانية فهو موقف تعليمى لكل داعية ، لم يكن هذا الحاكم – كأى حاكم – مجرد فرد حاكم طاغية بل هو ممثل لمؤسسة الفساد ، الفساد الاقتصادى والسياسى والأخلاقى .. وبديهى أن الفساد الأخلاقى هو نتيجة طبيعية للفساد السياسى والاقتصادى ، كان هذا الحاكم يريد أن يتزوج ابنة أخته ، وهو محرم فى الشريعة بالطبع وكان هذا السلوك وتلك الرغبة تعبير عن فساد أخلاقى طال كل شىء ، كان تعبير كامل عن فساد المؤسسة الحاكمة سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً ، وطلب هذا الحاكم من

النبى يحيى أن يبحث له فى الشريعة عن طريقة تحل له هذا الزواج ، إنه يريد أن يأخذ غطاءً شرعياً لممارسات المؤسسة ، مؤسسة الفساد ولكن نبى الله يحيى رفض بالطبع ، ليس رغبة فى الصدام ، فلم يكن ينتهج أسلوب الصدام ، ولكنه رفض أن يتحول إلى غطاء شرعى لممارسات مؤسسة الفساد ، وهذا يعنى أن إعطاء مؤسسة الفساد الاقتصادى والسياسى والأخلاقى شرعية من أى نوع أو أن نصبح جزءا من هذه المؤسسة بطريقة أو أخرى أمر مرفوض تماماً ، وهكذا كان رفض النبى يحيى ، الذى دفع ثمنه غالياً ولكنه كان راضياً بهذا الثمن ، كان هذا الثمن هو قتل النبى يحيى وتقديم رأسه الشريف على طبق لتلك العشيقة الماجنة !

***

تجربة المسيح عيسى ابن مريم فى مواجهة الظرف الذاتى والموضوعى الذى واجهه تجربة ثرية بلاشك ، وهى أقرب التجارب شبهاً لما تعايشه الآن كما قلنا من قبل .

فالمسيح كان وديعاً متواضعاً رحيماً بالخاطئين والعاثرين متجرداً من أواصر المنافع والشهوات ، أى غير مرتبط بالمؤسسة الحاكمة ولا بحلفائها ، يوجه خطابه للجماهير الفقيرة والمطحونة والمريضة والعاجزة والبؤساء من كل نوع ، والمستضعفون هم الحلفاء الطبيعيون لأية دعوة تغيير أو إصلاح لأنهم ليس لهم مصلحة من استمرار الأوضاع التى ظلمتهم وهمشتهم ، لم يوجه المسيح خطابه للمؤسسة الحاكمة ، بل إلى الجماهير ، لم يأت بجديد فى الشريعة ، بل أكد على الشريعة الموسوية وناضل ضد فهمها النفعى « البراجماتى » والتجارة بها أو الجمود على شكلها الخارجى فقط ، وهذا يعنينا بالطبع فيجب أن نتوجه إلى الجماهير أيضاً ، ويجب ألا نكون جزء من مؤسسة الفساد شكلاً ومضموناً ، ويجب أن ننحاز إلى الفقراء والمستضعفين وأن نوجه خطابنا لجميع هؤلاء ، ونحن أيضاً لسنا ديناً جديداً ، ولا نأتى بنص جديد أو حتى فهم جديد للشرائع

والعقائد المستقرة ، بل ممارسة جديدة ، والدخول إلى روح النص ، كما فعل المسيح عليه السلام ، ونكرر لسنا ديناً جديداً ، ولا فرقة دينية جديدة ، بل محاولة للنهوض وإصلاح الأمة والقضاء على أمراضها الاجتماعية والتصدى لمؤسسة الفساد وإعادة صياغة الإنسان روحياً فى مواجهة المادية الطاغية والتأكيد على المرجعية الربانية بدلاً من مرجعية المادة والحوسلة والحداثة وما بعد الحداثة !!

كان المسيح يدرك أنه عندما يخلص الجماهير من العبودية للمادية وهى إلاه ذلك العصر ، وإله عصرنا أيضاً فإنه كان يضرب مؤسسة الفساد فى مقتل ، كان يدرك حين ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين إنه يشعل الثورة على مؤسسة الفساد ، يقول المسيح: « جئت لألقى على الأرض ناراً فحبذا لو تضطرم » ويقول لتلاميذه «أتحسبوننى أتيت لأمنح الأرض سلاماً .. كلا وإنما هو الصدام والانقسام » .

كان المسيح حين يدعو إلى خلاص الضمير ونقاء الروح ، يدعو بالضرورة إلى مقاطعة مؤسسة الفساد وإلهها المادى ، بل يدعو للثورة عليها أو على الأقل رفض الخضوع لها وخدمتها .

واجه المسيح تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، وتحجر نظام المجتمع الذى أصبح أشكالاً ومراسم خلت من المعانى والغاية بل وتحجر الشرائع والقوانين ، وأن التقوى أصبحت اجترار النصوص والبحث عن مراسم الشريعة وغلبة المظهر ، وانتشر الخلاف على النصوص والحروف وخلاف التأويل والتحليل .

كان النبى عيسى مثل النبى يحيى يحب البسطاء والخاطئين وكان أعداؤه يعيبون عليه ذلك فقالوا عنه: « أنه محب للعشارين والخطاة » وكان يوحنا المعمدان « النبى يحيى » يقول لهم: «يا أولاد الأفاعى لا يهجس بأخلادكم أنكم تنتسبون إلى إبراهيم إنى أقول لكم أن الله قادر على أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم » .

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على ذلك قائلاً فى كتابه حياة المسيح: أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وإبراهيم » .

ولأن دعوة المسيح ويوحنا المعمدان اتجهت إلى الجماهير ، ورفضت المؤسسة الحاكمة أو المتحالفين معها ، فقد تنكر لها الكهان والفقهاء ومحترفى الدين ، وأحبها الجماهير ، فكان الناس يحبون كل من المسيح ويوحنا المعمدان حباً جماً ، يقول العقاد فى نفس الكتاب صـ٩٦ : « لم تذهب دعوة يوحنا سدى بين الدهماء وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوباً لديهم لدرجة أن الأدعياء خانوا أن يجترئوا عليه حتى لا ينقموا أغلبية الشعب » .

وبديهى أن الانحياز للفقراء والمرضى والمستضعفين والدهماء ورفض المؤسسة الفاسدة كان يعنى بالضرورة أن يمارس كل من المسيح ويوحنا المعمدان حياة الزهد والبساطة ، وأن يرفضا الانتفاع بأى شكل من أشكال الصلة بتلك المؤسسة بل أن يرفضا تقاليدها فى الترف والغنى ، فكان قوتهما من الجراد والعسل البرى ، ولا يعقل طبعاً أن يكون المناضلين ضد مؤسسة جزءً منها أو يقبضون منها أول النهار ثم يلعنونها آخر النهار أو توجه دعوتهم للجماهير ثم يعيشون حياة الترف التى يعيشها مصاصو دماء الجماهير حتى ولو كان ذلك نتيجة عمل مشروع أو جهد مأجور – وهو أمر صعب أصلاً – ولكن حتى لو فرض إمكانية تحقيقه فإنه يفقد المناضل مصداقيته .

كانت المؤسسة تدرك خطر دعوة المسيح عليها وكذا من قبله دعوة يوحنا المعمدان ، وكان محترفى الدين كذلك والمرتبطين بالمؤسسة ، كل هؤلاء تآمروا لقتل المسيح وقتل النبى يحيى «يوحنا المعمدان» .

كانت المؤسسة هى سبب الفساد ورأسه ، أما المذنبين والخاطئين الصغار فهم ضحايا تلك المؤسسة قبل أن يكونوا مذنبين وخاطئين وعصاة ، كان المسيح

يفهم هذا ويدركه ، ولذا فهم أن التطبيق الحرفى للشريعة ، فى ظل مؤسسة ظالمة مستبدة فاسدة هو أكبر الظلم وأكبر خروج على الشريعة ، ولذلك عندما جاءوا للمسيح وهو فى الهيكل بامرأة زانية وقالوا له أن شريعة موسى تقول ارجموا الزانية فما زاد على أن قال: « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

كان الظرف لا يستدعى قاضياً أو حسيباً على الناس بل قلب كبير يجذب إليه الضحايا والمظلومين ، ولذلك عندما طلب منه أحدهم أن يقسم الميراث بينه وبين أخيه قال له « من أقامني عليكم قاضياً أو حسيباً » ؟

كان المسيح يضع الفأس على رأس المؤسسة حين بلفت نظر الناس إلى الدخول إلى لب المسائل وليس قشرتها ، إلى اليد التى تقف وراء القفاز وليس القفاز نفسه ، إلى رأس الفساد وليس ضحاياه ، وكذلك حين ينادى الجماهير « طوبى للحزانى ، طوبى للمساكين ، طوبى للجياع والظماء ، طوبى للمطرودين فى سيل البحر ، طوبى للودعاء والرحماء ، تعالوا الى يا جميع المتعبين والمثقلين » إنه هنا لا يدعوهم إلى الجوع بل إلى الثورة على ناهبيهم وغاصبى قوتهم ومضطهديهم .

لم تكن الشريعة يوماً لاقتناص واصطياد الناس ، ولم تكن الشريعة يوماً معنى مجردا عن الزمان والمكان والظروف ، ولم تكن الشريعة يوماً إلا لإصلاح حال الإنسان ولها غاياتها العليا دائماً وهكذا فإن المسيح عندما عالج المرضى يوم السبت وقال له محترفو الدين أن العمل يوم السبت محرم فى شريعة موسى قال لهم المسيح « خلق السبت للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت » ، وبعده عفى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عن السارق ولم يقم عليه الحد، بل هدد بعقاب سيده الذى أجاعه فدفعه إلى السرقة ، هكذا يفهم المخلصون وكبار العقول والقلوب الشريعة على حقيقتها .

على أن أهم ما نتعلمه من تجربة المسيح هو عدم الوقوف على كلماته بحروفها، بل بمضامينها وغاياتها.

(٥)

الحركة الإسلامية رؤية نقدية

هل هي شعب الله المختار؟



نحن نؤمن بأن مستقبل هذه الأمة، بل مستقبل العالم كله مرتبط بالإسلام ، فالإسلام هو وجدان الأمة ومحركها، وهو دينها وثقافتها وحضارتها، ولن تتحرك تلك الأمة وبالتالى تواجه التحديات أو تتقدم أو تخرج من أزمتها الطاحنة، إلا بالإسلام كدين، وكثقافة وكحضارة وكأيديولوجية أيضاً، وإذا كان الإسلام كذلك، فإن الحركة الإسلامية من المفروض أن تكون طليعة هذه الأمة والمعبر عن وجدانها، وقاطرة للتغيير وخميرة النهضة، وبالتالى فإن برنامجاً صحيحاً واستراتيجية صحيحة، وتكتيكا صحيحا ضرورة من ضرورات تلك الحركة، وضرورة من أجل مستقبل الأمة، وكذلك فان الإسلام كمنظومة فكرية وسياسية واجتماعية قادر على حل مشاكل العالم، وقادر على إنقاذ المهمشين والمستضعفين وقادر على وقف الاستكبار والظلم فى العالم، وهو البديل المرشح الآن بعد فشل الماركسية لأن يكون أيديولوجية الفقراء والمستضعفين فى مواجهة الاستكبار العالمي. ولأن الأمر كذلك فإن الحركة الإسلامية تحتاج الآن بالتحديد لنوع من النقد والنقد الذاتي، يمارسه أبناء الحركة فرادى أو مجتمعين، أو الاستفادة من التجارب والخبرات وطرح الأسئلة الصريحة والقاسية والبحث عن الخلل وتحديده وعلاجه.

ومن هذه الأسئلة.. هل وصلت الحركة الإسلامية إلى طريق مسدود؟ ولماذا لم تصل إلى أهدافها بعد كل هذا الزمان وكل هذه الجهود والتضحيات؟ هل كان الخلل فى المنهج أو فى الممارسة، أو فى عدم كفاءة القيادات؟ وهل كانت الأطروحة الفكرية نفسها صحيحة؟ ولابد أن نقول هنا أن ماسوف نقدمه من نقد أو تحليل فى هذا الإطار هو نوع من الاجتهاد بمعنى انه رؤية فيها صواب وخطأ والعظمة لرسول الله ﷺ وحده، ويجب أن نقول هنا أيضا، أن التركيز على الأخطاء والخطايا لايعنى أن الحركة لم يكن لها منجزات أو إيجابيات، بل لها الكثير بالطبع، ولا يعنى أيضا أن أسباب الفشل كانت فقط بسبب العوامل الداخلية ولكن

أيضا كان هناك عوامل خارجية بعضها عالمى وبعضها محلى من مؤامرات ومطاردات وتضييق وغيرها، ولكن مع كل قسوة ذلك، فإننا نرى أن لا حركة هناك تهزم من الخارج مهما كانت التحديات، بل تأتى الهزائم عادة من الخلل الداخلي.

سنحاول الإجابة عن السؤال المطروح بقوة الآن على الساحة، وهو هل وصلت الحركة الإسلامية ـ وتحديداً فى مصر ـ إلى طريق مسدود؟ ونجيب بصراحة: نعم لأن الحركة بكل تياراتها لم تعد قادرة على تطوير نفسها أو معاودة الانتشار أو الوصول إلى أى نتائج استراتيجية، بل بعضها اعترف بخطئه فى مجمل ممارساته السابقة، وهو اعتراف يدل على الشجاعة، ويدل على ممارسة المراجعة والنقد الذاتى الجماعي، وهو أمر محمود بالطبع، ولكن الطريقة الفكرية التى تمت بها المراجعة وكذلك الآراء التى وصلت إليها تلك المجموعة لمواجهة المستقبل والحاضر تعبر فى جانب منها عن نفس الأزمة الفكرية، أى أنها قرأت الواقع خطأ مرتين، وليس هنا مجال مناقشة أرائها الجديدة نقطة نقطة، ففيها الكثير من المنطلقات الصحيحة والبديهيات التى كانت غائبة ولكنها افتقرت إلى تحديد الخطأ المنهجى الذى هو أصل الفشل والتخبط فى كل الحركات والممارسات، ومن ثم وقعت فى أخطاء فادحة أخرى عند تطبيق مفاهيمها الجديدة على الواقع الحالى والمستقبل.

والخطأ المنهجى إذا ما تم وضع اليد عليه، فسوف يريحنا كثيراً من القضايا الجانبية، فالعيب لم يكن فى مشروعية الحركة كما يزعم البعض، ولا فى عدم كفاءة القادة أو عدم إخلاصهم أو انتهازية بعضهم، ولا فى التقاعس عن تقديم التضحيات، ولكنه كان خطأ بنيويا، ذلك أن الحركة لم تسأل نفسها فى البداية، من نحن، وماذا نريد، وعلى أى أرضية نتحرك؟

هل نحن دين جديد، أم فرقة دينية جديدة؟ ماهى العلاقة الصحيحة مع الأمة والمجتمع؟ لو سألت نفسها أسئلة من ذلك النوع وأجابت إجابة خاطئة عليها،

ولاشك أن هذا الخلل البنيوى لم يؤد فقط إلى الوصول إلى طريق مسدود، بل أدى إلى ظهور جماعات وتيارات وممارسات وأفكار متطرفة، ذلك أن عدم اتخاذ الموقف الصحيح سوف يؤدى إلى ظهور انحرافات على الجانبين تهاون ـ تشدد .

وبديهى أن الحركة الإسلامية ليست دينا جديدا، بل هى ملتزمة بما استقر عليه المجموع من عقائد وقضايا وأفكار، وبديهى أن الحركة الإسلامية ليست فرقة دينية جديدة، فالواقع لايحتمل ظهور فرق دينية جديدة، وبالتالى فهى ليست متميزة عن الأمة لا فى العقائد ولا فى الأفكار ، وإن كان لبعض العلماء داخل الحركة أو خارجها اعتراضات على بعض القضايا، فصحف الحركة وأدبياتها واجتماعياتها ليست مجالا لمناقشة هذا الخلاف، بل الخلاف على القضايا العلمية يكون داخل معاهد العلم ومن خلال العلماء، والحركة لاعلاقة لها بهذا من قريب أو بعيد، وهذا يدفعنا إلى الإجابة عن السؤال: من نحن؟ والمفروض أننا جزء من هذه الأمة، قررنا تحمل تضحيات أكبر ومسئوليات أكبر وليس وجاهة أو تصدراً أو قيادة ـ وبالتالى فنحن نلتزم بأن نكون مجرد طليعة للأمة لخوض تحدياتها الاستعمار ـ الصهيونية ـ التخلف ـ الاستبداد السياسي، الظلم الطبقى ـ التعصب... الخ وليس أن نكون بديلاً عن الأمة، لأن الأمة ـ كل الأمة ـ مسئولة عن خوض المعارك والتحديات.

أى أننا خلايا حية تعمل على تنشيط باقى خلايا الجسد، وليس بمعزل عنه أو بديلاً عنه، لأن ذلك يعنى أن نتحول إلى وباء أو سرطان ونضر مهما كانت نوايانا حسنة.

وهذا يطرح بدوره فكرة تسمية الجماعة وهو من وجهة نظرى مسمى يعبر عن الخلل البنيوى المذكور، حتى لو تم تخفيف الأمر بأنها ليست جماعة المسلمين بل هى جماعة من المسلمين، إننا مرة أخرى مجرد طليعة، أو قاطرة أو حتى حزب سياسى ولا عيب فى ذلك، لنا أطروحة بشرية تستند إلى الإسلام كمرجعية، ولسنا

شعب الله المختار، ولا نمتاز عن الناس بشئ، ونحن مجرد حلقة من حلقات النضال والكفاح سبقتها حلقات وتتبعها حلقات، بمعنى أننا لانمتلك كل الحقيقة، ولسنا الذين اخترعنا الإسلام، ولا حتى الحركة الإسلامية المعاصرة، فالحركة الإسلامية فى رأيى هى كل الحركات التى حاولت أن تقود الأمة لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية، إنها عبد الكريم الخطابي، وعبد القادر الجزائرى وعمر المختار، وعمر مكرم ومحمد كريم والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد حسين وعز الدين القسام وكل من قاوم الاستعمار أو الصهيونية أو الاستبداد، نحن إذن مجرد حلقة سبقتها حلقات وتتبعها حلقات والوقوف عند حلقة واحدة هو نوع من الجهل والتعصب والجمود، وهو خطأ وخطر على كل مستوي.

كلمة الجماعة إذن، والممارسات المرتبطة بالجماعة ـ شكلت نوعا من العزلة والانعزال، وطرحت نوعا من التكفير السلبي، أو على الأقل تمييز من هم بداخل الصف عمن هم ليسوا به، أو نوعا من التعامل الخاص بين أفراد الجماعة الواحدة، وبما أن الإسلام ملك للأمة كلها، فهذا نوع من الاحتكار والتكفير الصامت غير المعلن!! وهو أمر خطير جداً شكلاً ومضمونا. فكرة الجماعة، والصف، والتنظيم قادت إلى إشكاليات أخري، فمكاسب الجماعة أو الصف أو التنظيم يجب المحافظة عليها وعدم إهدارها، حتى لو كان ثمن ذلك التخلى عن مطالب الجماهير، أو تأييد موقف يضر بالحريات أو يضر بالفقراء أو يمثل موقفا صامتا أو مراوغاً تجاه قضية ما، وبديهى أن الجماعة أو الصف أو التنظيم ليست غاية بل هى وسيلة لتحقيق أهداف وغايات وإذا تعارضت الوسيلة مع الغاية يمكن التخلى عن الوسيلة وبالتالى لو كانت المسألة تجرى على أساس أننا مجرد حزب سياسى يرى رؤية وبرنامجا معينا فى وقت معين يمكن أن يتغير ويتطور، ويمكن حل الحزب وعدم التمسك به إذا كان استمراره يتعارض مع المواقف المبدئية والأخلاقية، لكان الأمر أسهل كثيراً،

ولعل هذا يفتح الحديث عن الخطأ الخطير الذى وقعت فيه الحركة الإسلامية فى مصر حين لجأت إلى أسلوبى العنف ـ التربية ولاشك أن الأسلوبين خاطئان، وغير ملائمين لأوضاع مصر الاجتماعية والسياسية، والصحيح أن هناك وسطاً بين هذين، وهو النضال السياسي، ولعل هذا يطرح تحليل برامج الجماعات ـ التى ركزت على قضايا ليست محل اهتمام أى حركة صحيحة باعتبارها ليست دينا جديداً ولا فرقة دينية جديدة، ولاشعب الله المختار، فالتركيز على فكرة الدعوة مثلاً، هو تفكير غير صحيح فالدعوة تكون لغير المسلمين ـ هل ندعو المجتمعات الإسلامية إلى الإسلام مثلاً، ولكن الصحيح هو النضال من أجل إيقاظ النائمين وتحريك السلبيين والنضال من أجل توسيع الحريات، والنضال من أجل رفع الظلم الاقتصادى أو مواجهة الفساد وعدم تكافؤ الفرص، أو مواجهة الكيان الصهيونى أو مواجهة التخلف والجهل، أو حتى طرح أنفسنا بالتحالف مع القوى المناهضة للعولمة فى العالم كرأس رمح فى مواجهة الاستكبار الأمريكي، وطرح الإسلام كمنظومة أو كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين فى العالم لمواجهة المشروع الأمريكى الصهيونى العولمى وتحالف الرأسماليين والعسكر خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

الخطأ المنهجى الآخر ـ هو عدم إدراك الحركات الإسلامية مسألة الهزيمة الحضارية فلا شك أننا كأمة وكحضارة مهزومون أمام الحضارة الغربية، وفى غضون القرنين الأخيرين على الأقل تم ذلك وتكرس، وأمريكا وإسرائيل والغرب يمتلكون تفوقا علميا وعسكريا واقتصاديا وسياسيا علينا، ولابد أن ندرك هذا المتغير الخطير فى حركتنا وكذلك فى طريقة فهمنا للأمور وفى مطالبنا السياسية والاجتماعية وعلاقتنا بالحكومات فلسنا فى عصر الدولة العباسية مثلاً، حيث يقول الخليفة للسحابة التى تمر أمامه: أمطرى حيث شئت فسوف يأتينى خراجك، فالذى حدث أننا كأمة وحضارة مررنا بعدد من المراحل، فالمنحنى

الحضارى لنا صعد، ثم ثبت ثم بدأ فى النزول، ولابد من الاعتـراف بأننـا فى حالـة نزول حضارى الآن والسيادة فى العالم ليست لنا، واتخاذ قرار معين يمكن أن يؤدى إلى ضربنا بصواريخ كروز مثلاً أو التعرض لعدوان على غـرار العـراق وأفغانسـتان وبالتالى فيدنا ليست مطلقة فى كل شيء، الصحيح أن هناك تداخلات دولية وإقليمية لانفكاك منها، وأنه مهما كانت قوتنا فأعداؤنا أقوى بمراحل وبالتـالى يجـب عـدم التركيز على فكرة الحرب النظامية بل المواجهة بالإنسان سـلاح الاستشـهاد عـلى مستوى التحديات الخارجية، وعلى مستوى محاولة النهضة يجـب أن نعمـل عـلى عدة مراحل، أى يجب عدم حرق المراحـل يجـب أن نعتـرف أولاً بأننـا فى حالـة نزول حضاري، ينبغى تقليل عجلة النزول، ثم تقليـل سـرعة النـزول، ثـم إيقـاف النزول، ثم أحداث إنقلاب فى المنحنى باتجاه الصعود، ثم الصعود، وهذا يقتضى بالطبع مجهوداً جباراً لابد من بذله وإلا فسوف تهدر طاقاتنا دائما ونعود كـل مـرة من حيث بدأنا، يجب أن نحدث نوعاً من التراكم المعرفى والخبرة المنقولة دائما، وأن نضع فى اعتبارنا أننا كحركة فى مرحلة ما وبمسمى ما لا تستطيع ولا ينبغى لهـا أن تحاول حل كل الإشكاليات وأنها ستحقق كل شئ، بل تعمل على إحداث نـوع من التراكم الإيجابي والتقدم خطـوة أو خطـوات حتـى لاتضـيع الجهـود، وهـذا يقتضى نوعاً من التواضع وطول النفس، وهذا يفسر نجاح بعض الحركـات التـى حددت لنفسها نوعاً معيناً من النشاط الاجتماعى مثلاً فقدمت إسهاما إيجابيـا، فى حين أن الحركات التى وصفت نفسها بأنها كـل شـيء: حركـة سياسـية وعقائديـة واجتماعية ومالية وسلفية ومستقبلية وصوفية وعسكرية.. الخ فإنها تقريبـا فشـلت فى كل شيء مع ثمن باهظ وهائل بلا مبرر.

(٦)

مانفستو المقاومة



مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح ، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي ، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا .

إذا كان من الضروري بداية لوضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها ، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية ، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة ليس لها سمات ولا خصائص وكذلك أننا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقوانين وسنن الفيزياء والكيمياء . . . الخ ، لكان علينا في البداية تحديد من هي هذه الجماعة البشرية التي نحن بصددها ، وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة فنحن أمام جماعة بشرية – العالم العربي والإسلامي – لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل بل وتكريس الحالة التي نريد علاجها ، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا ، وبالتالي فإن المكون الرئيسي والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين (الأغلبية الساحقة) وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة ، وهكذا فإن شرط النجاح الأول لأي مشروع هو إسلاميته ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً بلا استثناء بالنسبة لكل الجماعات البشرية (١٤ قرناً على الأقل واتساع جغرافي وامتداد زماني وثقافي وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب) وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية – بوعي أو بدون وعي –

كرهاً أو رغباً هو قفزة فاشلة في المجهول والفراغ ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا ، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ومسخ ذلك الكيان جزئياً ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء للتحديات والأمراض ، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي (العلماني الليبرالي ، العلماني القومي ، العلماني الاشتراكي بكل درجاته) والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج تلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل ، بل بنتيجة عكس المطلوب تماماً ، الإسلامية إذن هي الشرط الأولى لأي مشروع للإصلاح ، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان وإذا قلنا أن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً ، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية ، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع وقلنا إن المنحنى الإسلامي صمد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم ، ثم ثبت هذا المنحنى ، ثم نزل وأننا الآن في حالة نزول حضاري – هزيمة تكنولوجية واضحة – يجب الاعتراف بها أولاً ، ثم العمل على تجاوزها ثانياً ، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى وقبل ذلك سبب صعوده ، لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة ، هي كلمة الجهاد ، فطالما قامت هذه الأمة بالجهاد ، كواجب شرعي وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم كلما صعد المنحنى الحضاري لأمتنا وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة أو اكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى ثم ثبت ثم نزل ، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل ، وفي الحقيقة فإن كثيراً من الأطروحات – بعضها إسلامي طبعاً – حين تتجاهل هذا البعد ، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية ، الإصلاح السياسي – التربية . . . الخ ، فإنها تكرس التخلف ، لن نحقق الوحدة مثلاً ، ولا الإصلاح الاقتصادي ، ولا الإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ، « **ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا** » وهكذا

فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة ، الجهاد هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي وشرط التنمية الحقيقية وشرط كل شيء صحيح وجميل ، فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليم أو تربية أو حتى تفوق فني وأدبي فإن الجهاد هو الشرط الأول ، وهذا المعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً ، وللحديث الشريف كذلك . يجب بالطبع إدراك بعد الهزيمة التكنولوجية ، والاعتراف بها ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقلل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا ، وأن نوقف هذا النزول تماماً ، ثم نحدث انقلاباً في المنحنى ثم نصعد من جديد إن شاء الله ، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء وهذا لعمري كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن ، يجب تقديم اجتهاد فكرى وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد .

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة ، التي تقول إحداها مثلاً إننا أمة متخلفة ومهزومة (وهذا صحيح) وإن المواجهة ليست حلاً (وهذا غير صحيح) ، ومن ثم فعلينا إتباع الأسلوب الألماني أو الياباني في الإصلاح ، أي ترك موضوع المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ للبناء والإنتاج في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب ، فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية ولا ثقافية بل عسكرية وسياسية ، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية فإنها أيضا حضارية وثقافية ، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي ، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا ، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا ، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول وحتى اليوم ، مرورا بالمواجهة في الأندلس والمغرب العربي (حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون

المغاربة) ومروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربي الإسلامي ١٠٩٥ م - ١٢٩٥ م وكذا مروراً بالمواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية ، ثم الاستعمار والصهيونية وحتى احتلال أفغانستان والعراق ، فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل بغير الاجتثاث لأمتنا ، ولن يتركنا نبني ونعمر فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني أو على أي أساس ، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة ، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كان لهم مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية ، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفيتي أو الصين بالتمدد في آسيا وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدأي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب ، وهو أكبر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا وهكذا فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة .

من الأطروحات الأخرى المراوغة ، أننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٣ تريليون دولار ، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً -وهذا صحيح ، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا أو لا نشكل له أي نوع من التهديد ، ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تنسف منطقهم ، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً فلماذا تم زرع إسرائيل ، ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ؟ . . هل لتدفق البترول مثلاً ؟ . . وهذا البترول مهم طبعاً ، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم ، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً ، إنهم يأخذون البترول وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول ، إذن فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم ، فهذا كلام جزئي ، نعم ربما لا

نشكل خطراً حقيقياً أو كبيراً الآن ولكن هناك ما يسمى بالقوة الكامنة ، والمنظومة الإسلامية الثقافية تمثل خطراً شديداً على المنظومة الغربية الرأسمالية لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولا هوت التحرير المسيحي ، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية لأنه من الناحية العلمية والموضوعية فإن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من نفس الأرضية الحضارية التي أفرزت الرأسمالية ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنيوي للفشل ، أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً ليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء ثانياً وبالتالي قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية ، وهي ذات خطاب عالمي ثالثاً وبالتالي فهي يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية (وهم أكثرية العالم) سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري ، أضف إلى ذلك أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة ، ثم ثقافة القتال والجهاد ، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين ، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً ، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر العربي والإسلامي ليس وهماً ولا خداعاً ، بل إدراك مبكر أو تقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا ما سادت ثقافة المواجهة والمقاومة وتم استعادة فعل الجهاد الجميل .

لماذا نقول مشروع المقاومة ، ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها ؟ ! . . ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم

إلا بالجهاد، وذلك لأننا أمة مستهدفة، والسيف فوق رؤوسنا، فهل نخدع أنفسنا مثلاً؟ . . وقد بان الأمر الآن، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين. .

وكذلك لأن الله تعالى وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾.

وهذه الآيات تنطبق على حالتنا الراهنة تماماً، حيث أنه لم يحدث تحالف – فضلاً عن موالاة – بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة، بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن موالاة والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة ولا القتال ولا الجهاد ولا الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل نعم هذا صحيح ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان، وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً، ولن يجدوا إن شاء الله – حتى الآن – وحتى بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن الفتح أو أمر من عنده سوف يأتينا، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية، وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه رغم كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت في تعطيل المشروع الأمريكي، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله، نفس الأمر بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين

الذي جاء أيضا في ظروف غير مواتية ، ومع ذلـك هـز الوجـود الإسـرائيلي هـزاً ، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاتـه كمـا اعتـرف بـذلك قـادة العدو وكبار مفكريه والأمر ذاته بالنسبة للمقاومة في لبنان .

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية وأنـه مـن المسـتحيل عمليـاً مواجهـة آلـة الحـرب العسـكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسـات الرسمية « وكل التجـارب دلـت عـلى ذلـك » فـإن التجـارب ذاتهـا دلـت عـلى أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها ، وهي سـوف تحقـق أولاً نـوع من التصدي والصمود يمنـع وصـول المنحنـى الحضـاري الإسـلامي إلى نقطـة السقوط النهائية ، والمقاومة سوف تزيد وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضـة في الجسـد العربـي والإسـلامي ، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية ، ولا شك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية ، ومن هنا فإن مشروع المقاومـة هـو المقدمـة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي ، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى والصـحيحة للتقـدم الاقتصـادي وإشـاعة روح الوحـدة والتكافـل والحيويـة والإيجابية ، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولـوجي أيضـاً ، وهكـذا فإن مشروع المقاومة وإشـاعة ثقافـة المقاومـة هـو الأسـلوب الصـحيح شـرعياً وواقعياً ، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتدمير والنهاية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجـزء الأكبـر منـا وتحويـل الباقي إلى عبيد أما المقاومة فهي إما نصر وإما شهادة ، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح ، وعلى الأقـل هنـاك الكرامة ، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمـة ، أي المحافظـة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد .

ولن نكون مغرقين في الوهم أو التفاؤل حين نقـول أن مشـروع المقاومـة لـن يحقق فقط العزة والكرامة لنا ، بل سيكون بدايـة لتحريـر العـالم كلـه مـن الهيمنـة والظلم الأمريكي الصهيوني ، وهذا سوف يرفع قيمة أطروحتنا الثقافية عالمياً ، بل يمكــن أن يتحــول الإســلام إلى أيديولوجيــة لكــل المستضــعفين والمناهضــين للرأسمالية والعولمة ، وحتى بمنطق الدعوة المباشـر فـإن المواجهـة والمقاومـة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً .

(٧)

الإسلام قاطرة التغيير والتحول في العالم



الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أصبحت حالة ملحة على الصعيدين العالمي والإسلامي، بل قل إن مستقبل البشرية عموماً ومستقبل العالم الإسلامي خصوصاً أصبح مرتبطاً بهذا المشروع ارتباطاً شديداً بل حيوياً.

ففي عالم يسوده الظلم والعنصرية والنهب والقهر والعنف والتطهير العرقي، واضطهاد الأقليات، في عالم المنفعة اللاأخلاقية التي أدت إلى إفساد البيئة والحياة فوق بركان نووي وذري، في عالم يموت فيه سنوياً ٥٠ مليوناً بسبب الجوع منهم ١٥ مليون طفل، في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بخيراته على حساب ٨٠٪ من هؤلاء السكان، في عالم الاغتراب بسبب سيطرة الآلة وحالات الانتحار حتى في البلاد الغنية ذاتها عالم الاكتئاب واللامعقول والإسفاف وقهر الإنسان، في هذا العالم تبدو الحاجة إلى مشروع حضاري يؤكد على قيمة الإنسان، ويتعامل مع الكون والطبيعة من منطلق الصداقة والتناغم والانسجام وليس الصراع والسيطرة والمنفعة اللاأخلاقية، مشروع حضاري يؤكد على المحافظة على البيئة وربط الإنتاج بحاجة الإنسان دون إخلال بالتوازن البيولوجي أو الاجتماعي، مشروع حضاري يؤكد على اللاعنصرية والعدل والحرية والمساواة والمسئولية الأخلاقية والاجتماعية عن الفقراء والمستضعفين، عالم بلا فقر ولا مجاعة ولا ازدواج معايير، عالم بلا اضطهاد للأقليات، أو ممارسة التطهير العرقي، عالم التعاون بين البشر وليس نهب بعضهم لحساب البعض الآخر، عالم بلا استبداد وبلا قهر وبلا عنف، وهذا كله لا يتوفر إلا في القيم الحضارية الإسلامية التي أثبتت سموها على المستوى النظري والمذهبي، وعلى المستوى التطبيقي، الأمر الذي يفتقده كل المنظومات الحضارية الأخرى، وخاصة المنظومة الحضارية الغربية التي عانى العالم الكثير بسببها ومازال يعاني، وعلى المستوى الإسلامي فإن الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أكثر حيوية، لأن العالم الإسلامي هو الذي سوف يحمل تلك القيم الحضارية إلى العالم، ولأن العالم الإسلامي في مجمله خاضع

للقهـر والنهـب والاسـتبداد بسـبب الحضـارة الغربيـة، وبالتـالي فـإن المشـروع الحضاري الإسلامي هو وحده الطريق لهذا العالم الإسلامي نحو التحرر والتنميـة والإنعتاق والنهضة، ولا شك أن فشل مشروعات النهضة التي اسـتندت إلى القـيم الغربية في العالم الإسلامي تؤكد بدورها على أن المشروع الحضاري الإسلامي هو وحده القادر على حشـد الجمـاهير وانتـزاع طريـق السـيادة الحضـارية والنهضـة والتنمية وحل كل المشـكلات والتحـديات التـي يعـاني منهـا أو يواجههـا العـالم الإسلامي.

وهكذا فإن المشروع الحضـاري الإسـلامي يـأتي عـلى مسـتويين: المسـتوى العالمي وهو المستوى الذي علينا أن نقدم من خلاله إلى العالم طريقاً جديداً مثيـراً للخروج من مأزق العالم المعاصر ومآسيه وظلماته، وهو المستوى الذي يتضـمن التأكيد على قيم الحرية، والعدل، واللاعنصرية، وعدم ازدواج المعايير والمحافظة على البيئة والتناغم معها، والمسئولية عن المستقبل ونصرة الفقراء والمستضعفين، وحماية الأقليات ووحدة المصير الإنساني وغيرها من القيم الحضارية الإسلامية.

والمستوى الإسلامي، وهو المستوى المرتبط باستنهاض همم المسلمين نحو التوحيد والوحدة والجهاد وبناء نمط من التنمية مستقل وغيـر تـابع، الأمـر الـذي يشكل البداية على طريق التحرر من الاستعمار والهيمنة الغربية، وتحقيـق النهضـة والتقدم والانعتاق ومن ثم يأتي بعد ذلك حمل القـيم الحضـارية الإسـلامية للعـالم بأسره.

النظام الصالح

سؤال الإنسانية الدائم : ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به، ويحقق لها حياة مستقرة هانئة؟ .... وبديهي أن إجابة السؤال بالنسبة للمؤمنين بالله ... هو أن الله هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يصلحه وما يفسده، ومن ثم فـإن القواعـد التي وضحها الله تعالى وأرشد بها الإنسان، هي التي تحقق ذلك الهـدف. وبمـا أن

الإسلام هو دين الله الحق، وبما أن الرسول ﷺ هو النبي الخاتم، فإن النظام الإسلامي وحده هو الذي يحقق ذلك، ولكن هذا في حد ذاته ليس حلا نهائيا، فالنظام الإسلامي يطبقه بشر، وثم فإنه مستوي ارتفاع هذا البشر إلى مستوي النظرية هو شرط تحقيق ذلك، وهذه الشرط بدوره موجودا في كل النظم، فالنظم كلها يطبقها بشر، ومن ثم فإن من الممكن أن يحسنوا التطبيق أو لا يحسنوه، سواء كان النظام المطبق رباني أ وضعي ونخلص من هذا أن النظام الوضعي والنظام الرباني يتساويان في شرط التطبيق، ولكن للنظام الرباني فضل لا شك فيه بالنسبة للنظرية .

من زاوية أخري فإن الخبرات البشرية ذاتها ومن خلال تجارب وقعت في التاريخ القديم والحديث والمعاصر تقول أن النظم الوضعية فشلت في الأمرين معاً، في النظرية والتطبيق على حد سواء، بل لقد عانت البشرية معاناة هائلة بسبب تطبيق النظم الكسروية والهرقلية، بل والديمقراطية والاشتراكية والفاشية والنازية والشيوعية، بل إن مستوي المعاناة كان بشعا، ففي ظل تلك الأنظمة وبالذات الديمقراطية منها حدثت إبادة لشعوب الأمريكتين وأستراليا وحدثت مذابح في معظم أرجاء العالم نفذها الرجل الأبيض، ونشأت الصهيونية ثم دولة إسرائيل، وهى حاله تجسيم للظلم على مستوي اغتصاب حقوق شعب وأرض وعلى مستوي انتهاك حقوق الإنسان بصورة يومية وعلى مدار الساعة لعشرات السنين تحت سمع العالم وبصره، والديمقراطية هي التي استخدمت القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية وهي التي مارست نهب العالم ، ولا تزال قوات الدول الديمقراطية تنتهك سيادة الشعوب في العراق وأفغانستان وفلسطين ....الخ أضف إلى ذلك إفساد البيئة واستنزاف ثروات الأرض....الخ.

والمحصلة أن هناك شقاء لا شك فيه ترتب على تطبيق تلك النظم، شقاء جماعي ... أما في التطبيق الإسلامي فإن المسألة مختلفة، صحيح أنه هناك

تجاوزات، ولكنها تجاوزات فردية لا ترقي إلى تشكيل ظاهرة، وهي مرفوضة طبعاً، أي أننا لو قارنا بين مستوي السعادة في ظل الحضارة الإسلامية ومستواها في الحضارات الأخرى وخاصة الغربية نجد أنه لصالح الحضارة الإسلامية بامتياز، ونحن هنا نتكلم عن الظاهرة في مجراها الرئيسي، أو في المحصلة النهائية، ونكرر أن هناك استثناءات ولكنها لا تخرق القاعدة، هناك استثناءات إيجابية في الحضارات الأخرى، وهناك استثناءات سلبية في التطبيق الحضاري الإسلامي ولكن تظل القاعدة هي نفسها وبديهي أن النظام الإسلامي به من الاتساع والمرونة ما يسمح بالاستفادة أيضا من الخبرات الإيجابية للتجارب الأخرى، وهذا لا يخالف الشرع الحنيف، بل هو فريضة أوجبتها الشريعة الإسلامية ذاتها، فالحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق بها.

الحديث عن الحرية في الإسلام، وحرية التعبير، ليس حديثاً عن النظام السياسي الإسلامي فقط، بل هو حديث يتصل بمنهج الإسلام ذاته، لأن الحرية في المنهج الإسلامي غاية ووسيلة في نفس الوقت، فلا إيمان بدون حرية، ولا إكراه على الإيمان ولا إكراه أيضا على الكفر، وبالنسبة لنا نحن المسلمين، فإننا نؤمن أن الإسلام في فطرة الناس، إذن لو تنافس الناس بحرية، لو لم يكن هناك قهر ولا عسف، لو لم يكن هناك تعصب مسبق لأي شيء لأصبح الإيمان سهل جدا، ولعل هذا واجب أمة الإسلام واجبها القضاء على الاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والتعصب، وإعطاء الناس حرية الاختيار، وفي تلك الحالة فإن الناس تختار الإسلام لأنه دين الفطرة، وحتى لو لم يختاروه فهم أحرار إذ لا إكراه في الدين، المهم أن أحد مهام الأمة الإسلامية هو تحقيق حرية الاختيار وإزالة كل العوائق التي تحول دون ذلك، ومن نافلة القول أن الجهاد في الإسلام في أحد أهدافه هو إزالة الأنظمة الاستبدادية التي تقهر الناس على الكفر، وتحقيق حرية الدعوة، فإذا تحققت حرية الدعوة بدون عقبات فلا داعي أصلاً للقتال.

وهكذا فالحرية هي في صميم المنهج الإسلامي من ناحية إقامة الحجة على

الناس بتحقيق حرية الاختيار حتى يختار الناس الإسلام أو الكفر بحرية وحتى يتناقشوا ويتحاوروا بدون ضغوط.

الحرية أيضا ومن ثم حرية التعبير والتفكير تظهر في تصور الإسلام للإنسان، استخلافه في الأرض، ودوره فيها، حملة للأمانة ثم وجود نوازع للخير وللشر في نفسه، وهكذا فإن ذلك لا يتسق مع بعضه البعض بدون أن يكون ذلك الإنسان حرا. فلا معني لأن يكون الإنسان خليفة مسؤول مكلف بدون هذه الحرية بكل أنواعها على أن من المهم هنا أن نحدد أن الإنسان يتكون من كيان مادي وروح وعقل، والروح خارج إطار فهمنا، والكيان المادي خاضع لقوانين وسنن المادة التي جعلها الله عليها، ويبقي أن الحرية منوطة بالعقل الذي يتميز به الإنسان على سائر المخلوقات، فالإنسان مسير فيما يخص الجزء المادي من تكوينين ولكنه مخير فيما هو متاح له من خير أو شر «ضمن مشيئة الله الكلية طبعا»، ويختار بين الخير والشر بعقله ومن ثم فلا مسؤولية على المجنون أو الصغير أو المكره وهو مسؤول عن اختياره ويحاسب عليه يوم القيامة فضلا عن وجود الجزاء الدنيوي.

وهكذا فالحرية هنا شرط لازم لتكليف الإنسان وحملة للأمانة ومسؤولية عن أعماله وأقواله.

وإذا كان ذلك شأن الإنسان حسب التصور الإسلامي، فإن النظام الإسلامي ككل يؤكد ويساعد ويحقق تلك الحرية، فنظام الشورى في الإسلام يحقق أوسع مناطق تلك الحرية، وكذا فإن النظام الاجتماعي الإسلامي يحقق الإشباع المادي لكل إنسان حتى لا تكون الحاجة حائلا دون حرية التفكير والتدبير، والنظام الاجتماعي الإسلامي بما فيه من تحقيق للعدل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، النقد والنقد الذاتي، طلب العلم كلها تحقيق تلك الحرية فالعلم مثلا يزيد مساحة الوعي ومن ثم القدرة على حرية التعبير، والعدل يجعل الإنسان آمنا إذا عبر عن رأيه، والنقد والنقد الذاتي هو في صميمه نوع من حرية الرأي واعتبار ذلك

واجب على المسلم تجاه الإمام وتجاه المجتمع وتجاه أخيه المسلم والنظام الأخلاقي الإسلامي الذي يمنع شرب الخمر والزنا والشذوذ ولعب الميسر ....إلخ كلها تقوي الإنسان والمجتمع على أداء واجب حرية التعبير، بل حتى العبادات المباشرة كالصلاة هي نوع من الطاعة لله أولا ثم لتحقيق أهداف قوة النفس والبدن وعدم الخوف إلا من الله ومن ثم القدرة على إبداء الرأي دون خوف، وشهادة أن لا إله إلا الله ومن ثم الشجاعة في قول الحق والصيام، فمن لم يدع قول الزور والعمل به أي في المقابل أن يصر على قول الحق والعمل به، فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه، والحج مثلا هو اجتماع لتبادل الرأي بين المسلمين كل عام، والزكاة هي نظام اجتماعي تحقق رفع الفقر والبطالة عن المجتمع ومن ثم يصبح غير خاضع في رأيه إلا للحق وليس لصاحب المال أو السلطان.....إلخ

هناك أيضا محطات ومواقف كلها تدل على الحرية عموما وحرية التعبير خصوصا، وهناك وثائق تاريخية مثل وثيقة المدينة، أو خطب الرسول صلى الله علية وسلم والخلفاء الراشدين وغيرها تشكل علامات مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكلها تؤكد على حرية الرأي.

على أننا يجب أن نعترف بأن أحوال المسلمين ليست على ما يرام، وأنه غاب عنهم الكثير منن تلك القيم وأن من الواجب عليهم استعادتها ليس من أجل أنفسهم فقط، فلن يتقدموا إلا بها، ولكن أيضا من أجل تقديم نموذج حي للشعوب الأخرى، وتقديم بديل حضاري رائع للنظم السائدة حاليا في العالم، والتي جلبت الشقاء للإنسان، وإذا استمرت يمكن أن تقود البشرية إلى كارثة ومن ثم فإن التقدم بالمشروع الإسلامي واجب وضرورة لإنقاذ البشرية وهذا واجب كل الأمة عموما، والعلماء منها خصوصا.